تأليف المستشرق:

مرغوليوث

دِرَاسَاتٌ
عن المؤرّخين العَرَب

ترجمة

الدّكتور حسين نصّار

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ

پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ

Marfat.com

Marfat.com

دراسات

عن المؤرّخين العرب

تأليف المستشرق:

مرغوليوث

ترجمة

الدّكتور حسين نصّار

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

Marfat.com

137856

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع	٢٠٠١/٩٨٤٣
I.S.B.N. الترقيم الدولي	977-341-047-1

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد ـ الظاهر ـ القاهرة

ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

{ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً

وقال إننى من المسلمين}

صدق الله العظيم

فصلت /٣٣

Marfat.com

Marfat.com

هذا الكتاب ...

مؤلـــف هذا الكتاب ، المستشرق الكبير: د ٠ س ٠ مرغوليوث ، من المستشرقين المعروفين الذين عرفتهم الدراسات العربية والإسلامية . فقد أســـــدى هـــذا المستشـــرق الكـــبير خدمات لها قيمتها فى مضمارى الأبحاث الاصيلة ونشر المخطوطـــات . وقـــد نشـــر دراســـــات كثيرة عن العرب ومدنهم وتاريخهم وعلاقتهم بالإسرائيليين قبل الإسلام ؛ وقام بتحقيق مخطوطات بالغة الأهمية أشهرها « معجم الأدباء » لياقوت.

وهذا الكتاب الذى نضعه بين يدى القارئ العربى اليوم هو سلسلة محاضرات ألقاهـــا المستشـــرق الكـــبير فى جامعة كلكتـــا ، وقد كانت زبدة دراسته وبحثه الطويلين فى المخطوطات والمؤلفات العربية التاريخية .

وقـــد قام بترجمة هذا الكتاب إلى العربية الدكتور حسين نصار أحد أساتذة الادب العربى فى كلية الاداب فى جامعة القاهرة . والدكتور نصار مؤلف مشهور فى حقـــلى الدراسة الادبية والتاريخية ، وقد ترجم عددا من الكتب القيّمة إلى اللغة العربية أهمها:

Marfat.com

« مصـــادر الموســـيقى العربية » لفارمر، و« المغازى الأولى ومؤلفوها » لهوروفـــتس ؛ ونشـــر: « رحـــلة ابن جبير » وقام بتحقيق وشرح ديوانى سراقة الـــبارقى وابن وكيع التنيسى ومن مؤلفاته : « المعجم العربى – نشأته وتطوره » (جـــزءان) ، « نشأة التدوين التاريخى عند العرب » ، « نشأة الكتابة الفنية عند العرب » .

ونحـــن إذ نقوم بنشر هذا الكتاب ، فما ذلك إلا إيمانا منا بفائدته للدارسين والمهتمين بالدراسات التاريخية ؛ والله نسأل أن تكون الفائدة منه عامة .

مكتبة الثقافة الدينية

Marfat.com

المحتويات

		صفحة
تصـــــدير		١١
الفصل الأول :	« نظرة عامة فى الموضوع »	١٣
الفصل الثانى :	« التاريخ الجاهلى »	٣٠
الفصل الثالث :	« بواكير التاريخ العربى »	٤٦
الفصل الرابع :	« الشعر أداة للتاريخ »	٦١
الفصل الخامس :	« مؤرخو القرن الثانى »	٨٢
أبو مخنف لوط بن يحيى		٨٢
عوانة بن الحكم		٨٣
محمد بن إسحاق		٨٤
المدائنى		٨٥
هشام الكلبى		٩٠
الواقـــدى		٩٠
الهيثم بن عدى		٩٣
الزبير بن بكار		٩٤
إبراهيم بن محمد بن سعيد		٩٥

Marfat.com

الفصل السادس : مؤرخو القرن الثالث ٩٩
الطبرى ٩٩
أبو حنيفة الدينورى ١٠٨
أحمد بن أبى طاهر طيفور ١١٠
البـــلاذرى ١١٢
ابن قتيبـــة ١١٥
اليعقـــوبى ١١٩
الفصل السابع : « مؤرخو القرن الرابع » ١٢٢
مسكويـــه ١٢٢
ثابت بن سنان الصابى ١٢٨
محمد بن يحيى الصولى ١٢٩
محسن بن على التنوخى ١٣٠
الفصل الثامـــن : « المؤرخون المتأخرون » ١٣٨
أبو شجاع الروذبارى ١٣٨
هلال الصابى ١٣٩
الخطيب البغدادى ١٣٩
ابن عساكر ١٤٢
ابن الجوزى ١٤٥
ابن خلدون ١٤٦
المقـــريزى ١٤٨
ابن إيـــاس ١٤٩

Marfat.com

تصـــــدير

قـــدم أحد الزملاء من الدارسين لمستشرق مشهور ، نشر عدة كتب عربية ، الملاحظـــة والســـؤال التاليين : أرى ، يا أستاذ ، أنك قد طبعت عددا من الآثار العربية ؛ فمتى تنوى أن تشرع فى قراءتها ؟ وليس من المحتمل أن يقدم هذا السؤال إلى الكاتب الحالى ، الذى ترجم كثيرا من الكتب العربية التى نشرها وعلق عليها ؛ ولكـــن قـــد يقال ما يشبه ذلك عن المجلدات السبعة التى تضم « معجم الادباء » لياقوت ، والتى تمتع (وكدّ) بنشر معظمها مرتين ، دون ترجمة ، ومع أقل عدد ممكن من التعليقات ، التى وجهت همها الاول إلى نقد الروايات . ولذلك حين دُعى لالقـــاء بضـــع محاضرات فى جامعة كلكتـــا ، اعتبر الدعوة فرصة لجمع المعلومات الـــتى يضـــمها كـــتاب ياقوت عن المؤرخين العرب الرئيسيين فى القرون الهجرية الاربعـــة الاولى وترجمتها إلى الإنجليزية ، وإضافة مازودته به دراسته لهؤلاء الكتاب مـــن ملاحظـــات إليهـــا . فكثير من محتويات الكتاب مألوف لدى الدارسين من العـــــــرب، ولكننى أؤمل أن يجدوا المحاضرات محتوية على قسط ذى شأن من المعلومات الجديدة .

اكسفورد ، يولية ١٩٢٩ م

د . س . م .

Marfat.com

Marfat.com

دراسات عن

المؤرخين العرب

الفصل الاول

نظرة عامة فى الموضوع

التاريخ موضوع يؤلف أحد الفروع الغزيرة المادة فى الادب العربى ، وقد قام المستعرب الالمانى وستنفلد **Wustenfeld** بتتبع مجموعة من المؤرخين العرب الذين عاشوا فى السنوات الالف الأولى للإسلام ، فبلغ العدد ٥٩٠ . ومن المرجح أن كثيرين قد أفلتوا منه ، ولو تنبه إليهم لزاد العدد كثيرا . وكثير من آثار هؤلاء المؤرخين ضخم الحجم . يروى أن الطبرى المؤرخ (ت ٣١٠ هـ) أراد أن يملى على تلاميذه كتابا فى التاريخ : أراد أولا أن يضم ٣٠,٠٠٠ ورقة ، ولما اعترض تلاميذه بأن العمر لا يكفى لدراسة مثل هذا الكتاب ، اختصره إلى العُشر ، فجعله ٣,٠٠٠ ورقة ، وهو ما يتفق مع نسخ ليدن والقاهرة . وقد ترك له هذا التأليف من الفراغ ما أتم فيه كتابا آخر بنفس الحجم عن القرآن ، ويقال عنه أيضا إنه عُشر الحجم الذى كان يعتزمه أصلا . ومتوسط ما كان يكتبه فى اليوم ، فى الحقبة المثمرة من حياته ، ٤٠ ورقة ؛ ووجد هؤلاء الذين قسموا الاوراق التى كتبها على أيام حياته من المهد إلى اللحد أنه قد كتب ١٤ ورقة فى كل يوم من أيام حياته .

Marfat.com

وقـــد اعتُبر حقبة ، هو وسلفه الجاحظ البصرى ، وخلفه ابن حزم القرطبى ، أكثر المؤلفـــين العرب تأليفا، ولكن يبدو أن ليس لأحد منهم الحق فى هذا الامتيـــــاز . إذ تملأ عناوين كتب المدائنى (ت ٢٢٥ هـــ) ؛ الذى كان من أوائل المؤرخين ، ما يزيد على خمس صفحات . وتستهل كتب ابن عساكر (ت ٥٧١هـــ) بتاريخ دمشـــق فى مئة مجلد ، وكانت المسودة الاولى منه تضم ٥٨٠ كراسة ، والأخيرة ٨٠٠ . ولكـــن يـــليه مجموعـــة من عناوين الكتب التى لا تشغل غير صفحتين ، وبعضـــها ذو حجـــم واضـــح الضخامة . ومن الواضح أن تاريخ الطبرى ، على ضخامته ، لا يقارن فى الحجم بتاريخ الإسلام للذهبى فى القرن الثامن الهجرى .

وكـــان لمعالجة التاريخ على هذا المجال المتسع بعض المحاسن الواضحة ، وإن كنا سنرى أن المحتويات لا تتناسب مع ضخامة الكتاب أحيانا إذ كثيرا ما تتضخم المجـــلدات بـــتكرير المادة الواحدة أو التى تكاد تكون واحدة ، لتغير سند رواتها . ولذلك من الممكن اختصار مجلد كامل من ابن عساكر إلى صفحات قلائل (غالبا) إذا ما رضى القارئ بسند واحد للخبر الواحد . ولكن من الواضح أن ثمن النسخ لا بـــد كان مرتفعا ، حتى فى حالة تناسب المحتويات مع الضخامة ، ومن ثم لم يكن تنسخ إلا نسخ قليلة ؛ وتبين الاقوال المتناثرة التى نحصل عليها عن ثمن الـــكتب أو تكـــاليف النســـخ أنه لم يستطع على مجموعات كاملة من أمثال هذه الكتب إلا قـــليل من الدارسين . وحينما يتوفى مالك مثل هذه الكتب ، كانت المجلدات توزع بـــين الورثة . ولذلك كان الدارس الذى يستطيع أن يرى جميع مجلدات كتاب من هذا النوع بالرحلة إلى البلدان المختلفة فى كثير من هذه الاحوال يعتبر نفسه حسن الحظ .

Marfat.com

وبـــرغم أن ثبت وستنفلد ينتهى بعام ١٠٠٠ هـــ ؛ لا يبتدئ بوفاة النبى . والاقـــوال المتعـــلقة بالأدب المنثور المدون على صورة الكتب قبل العهد العباسى غامضـــة ولا يوثق بها فى أغلب الاحيان . والمحل الطبيعى للكتاب لدينا مادة ما مثل الـــورق : حُفظ فى الذاكرة أو لم يحفظ . ولكن المحل الطبيعى للكتاب لدى العرب هـــو الذاكـــرة : دُوِّن أو لم يـــدون . وفى القرآن شواهد على أنهم كانوا يعتبرون الذاكـــرة محل الكتاب ، بغض النظر عن أهمية التدوين عندهم . والنص المروى قد يُحـــرَّف أو يُنْسَى ؛ وقد يُدوَّن أو يحفَظ . ونقرأ فيه عن نصوص واضحة فى صدور مـــن وصـــفوهم بالمعرفة . فيقال إن أهل الكتاب اتخذوا « جداول » من كتبهم المقدسة : ومن الممكن أن توجد هذه الكتب ، وقد وجدت فعلا ، مستقلة عن هذه الجـــداول ، وأمكن نقلها على هذا النحو إلى الانبياء بالوحى . وستتاح لنا الفرصة فـــيما بعد لملاحظة قوة سيطرة هذا التصور عليهم حتى فى الوقت الذى دونوا فيه وقيدوا الكتب الضخمة على نطاق واسع .

وستشـــغل الاســـباب التى منعت تطور الادب المنثور قبل العصور العباسية والعلل التى تغلبت عليها بعض وقتنا فى الغد . والأمر الذى يثير عجبنا، عند اعتبار الضـــخامة الهائلة التى بلغ إليها الادب التاريخى ، هو سرعة ذلك التطور . ويشبه ذلـــك الـــتدفق المفـــاجىء لقدر كبير من الماء كان مخزونا . ولعل أحد الاسباب اخـــتراع لم يعـــط فىتاريخ التقدم القيمة التى هو أهل لها ، ذلك هو الورق ، الذى أدخلـــه المســـلمون فى أوروبا . وقد حصل عليه المسلمون من الشرق الأقصى ، وأخـــذوا فى اســـتخدامه وصناعته حتى فى القرن الأول من تقويمهم . ويشبه ذلك الاختراع ، فى ترخيصه عملية إنتاج الكتب ، اختراع الطباعة .

Marfat.com

ولكـــن يـــبدو أن الاســـلام نفسه ، مع ظهور العباسيين ، وبناء عاصمتهم العظـــيمة بغـــداد ، حطـــم الاغـــلال . حقا ليس من الواضح أن الاسرة الجديدة اســـتبدلت بالمثل الاموية فى التدين والاخلاق أحسن منها . ولكن من اليسير تبين الـــترحيب الذى لقيته الاسرة الجديدة ، إذ كانت الاضطهادات بين بنى أمية وآل الـــنبى من العمق بحيث لا تسمح بالاخلاص لاحدهم . ويروى عرضا كيف أبطل عمـــر بن عبد العزيز الورع سب علىّ على المنابر : ولذلك يحترم الشيعة ذكراه . ولكن كان لهذا الخضوع للعاطفة من النتائج الخطيرة فى زعزعة سلطة الامويين ما كان لاسترجاع رفات نابليون فى زعزعة دعائم المملكة الفرنسية . وحين نقرأ كيف لم يكن الناس فى العهد الاموى يجرءون على تسمية أبنائهم بعـــلى ، أو حسن ، أو حســـين ، لا يدهشنا أن تتأخر أقدم ترجمة للنبى إلى ما بعد قيام العباسيين . إذ لم يكن من الممكن أن تروى ترجمة النبى فى أيام الامويين دون زعزعة إخلاص المسلمين لحكمهـــم : زعزعة خطيرة : ولم تكن النتائج لتحسن الاوضاع . فإذا كان الناس خافوا أن يسموا أبناءهم عليا ، أو حسنا ، أو حسينا ، وألفوا سماع سب علىّ على المـــنابر ، فـــإنهم كـــلما قل سماعهم أنباء صدر الإسلام ، ازداد احتمال احتفاظهم بطاعتهم .

ومـــن المـــرغوب فيه أن نعثر على بعض الاسس التى نستطيع أن نقيم عليها تصنيفا لهذا الأدب الفسيح ، وربما زودنا بها تصورنا لما نريده من التاريخ . حقا إننا لســـنا فى حاجة إلى أن نشغل أنفسنا بالسؤال عن كيفية تدوينه : فقد قُدِّمت عدة نظـــريات مختلفة عن ذلك الموضوع الغامض . ومن المحتمل أن نتفق جميعا على أنه سجل للحوادث : وأن تلك الحوادث هى غالبا ، وإن لم يكن دائما ، أقوال الناس وأفعالهم . ولعلنا نحصل على بعض أسس التصنيف من هذا التعريف .

Marfat.com

أولا مـــن القـــدر المعالَج فى المكان والزمان ، فهناك تواريخ عامة وتواريخ خاصـــة . فكـــتاب الطبرى تاريخ عام ، فى قصده على أية حال . ولذلك يستهل بـــتعريف الـــزمان ونظرية عن عمر الدنيا ، وعنوانه تاريخ الرسل والملوك . وحين يصـــل إلى ظهور الاسلام ، يقتصر على الجزء الذى ضمه الاسلام من العالم . وسار غيره من المؤرخين العامين المعترف بهم على الخطة نفسها .

وقيـــد المؤرخـــون الذين كانت خطتهم أقل طموحا بالاجزاء الاسلامية من الارض أو بهذا أو ذاك من تلك الاجزاء : أو بعهد ما من التاريخ الاسلامى عـــامة أو مـــن تـــاريخ دولة إسلامية خاصة . ولذلك لدينا تاريخ الاسلام للذهبى الذى أشـــرت إليه ، وتواريخ أقطار كمصر ، والأندلس ، والمغرب ، أو بلدان كمكة ، والمدينة ، ودمشق ، ونيسابور ، وهمذان ، وهراة أو أسرات كتاريخ الخزرجى لآل رسول فى اليمن ، أو تاريخ أبى شامة لدولتى نور الدين وصلاح الدين .

ويمت أساس آخر للتصنيف للأشخاص الذين كان لهم نصيب فى الحوادث. والأحـــرى أن يسمى هذا الفرع ترجمة لا تاريخا ، ولكن الخط الفاصل بين الاثنين غـــير بارز فى الغالب . وحيثما يكون الشخص المدونة حياته حاكما ، يختفى الخط الفاصـــل : إذ أن الحـــاكم هـــو الدولة وفقا للقول المشهور للويس الرابع عشر ، وترجمته تاريخ لعصره . ولما كانت الدول المدون تاريخها خاضعة للحكم المطلق إلا فى أحـــوال نـــادرة ، وجدت التواريخ المتتابعة أقسامها الطبيعية إلى فصول بتعاقب الحكـــام . وحيـــثما يكون عنوان مثل هذا الكتاب بسيطا ، لا خياليا ، نجده كثيرا يـــتفق مـــع ذلـــك : فتاريخ الطبرى ، كما رأينا ، تاريخ الرسل والملوك : وأمثال العـــناوين الـــتالية : تاريخ الخلفاء ، أو أخبار الخلفاء ، عامة العموم ، ولا يزداد وضوح هذا الفاصل بين التاريخ والترجمة حين لا يكون الموضوع حاكما وإنما وزير

Marfat.com

مطلق السلطة ، شأن كثير من الوزراء ، فحياة الوزير الطيب على بن عيسى ، التى نشرها حديثا مستر بـــوون Mr. Bowen ، فى الحقيقة تاريخ لعهد المقتدر : لأنه بالرغم من قدرة الخليفة على تعيين الوزراء وعزلهم حسب هواه ، كان الوزير فى أثناء تقلده السلطة مسئولا عن جميع مصالح الدولة . حقا اعتبر الحجة الكبير فى القـــانون الدســـتورى الطريقة التى يفوض بها الحاكم الوزير سلطته أمرا عاديا . ولذلـــك يجب اعتبار الكتب التى تروى حياة الوزراء تواريخ لعهودهم . ونملك من الكـــتب الكـــثيرة الـــتى عالجت هذا الموضوع قطعا من كتابين ، وربما عثرنا على غيرهمـــا. وإذا كانت هذه الكتب تختلف فى الصورة عن التواريخ، فان ذلك راجع إلى ميـــل المترجمين العرب إلى إيراد الأخبار على ترتيب سنوى بدلا من اتباع رواية الاحداث على ترتيب وقوعها .

وحيثما كانت الترجمات لأشخاص أقل اتصالا بالشئون العامة ، لم تصنف مع الـــتاريخ بدون شروط معينة ، ولكن الباحث الحديث فى ذلك الموضوع لا يستطيع أن يغفـــلها ، إذا أراد أن يفهـــم شيئا عن حياة الرعية وشواغلها ، إلى جانب تتبعه الملوك فى كفاحهم الخارجى والداخلى ، وروابط الزواج بينهم ، وقوانينهم . وأدب التراجم عند العرب غاية فى الغنى : حقا يبدو أنه كانت تقام سوق لترجمة من يتوفى فى بغـــداد مـــن الكبراء كما هو الحال فى عواصم أوروبا فى أيامنا ؛ وحيثما تفرض شخصـــية رجـــل ما تأثيرها فى الرأي العام لبعض الأسباب ، أو تبلغ آثاره الادبية مرتـــبة القدماء ، تلتف حوله عدة تراجم . ولاشك أن تراجم الاحياء كانت نادرة ولكنـــنـــا لديـــنـــا مثال لاحدها فى كتاب أبى حيان التوحيدى عن الوزيرين ابن العميد الثانى والصاحب بن عباد ، الذى احتفظ ياقوت بمقتبسات كبيرة منه ، على حـــين يوجد من الأسباب ما يجعلنا نؤمن بأن الكتاب كله لا يزال موجـــودا . فقد كـــان عـــلى وشك أن يطبع فى الآستانة ، ولكن السياسة التى أرغمت الصحفيين

Marfat.com

العثمانيين على إخفاء قتل الرئيس مك كنـــلى Mc Kinley ، منعت نشر كتاب يهـــاجَم فيه أحد الوزراء . أضف إلى ذلك أن الكتاب اشتهر بأنه يجلب النحس ، كبعض الكتب الأخرى .

والادب المؤلـــف مـــن تراجم مجتمعة غزير بصورة غير عادية ، ولذلك كان أيســـر عـــلى دارس تـــاريخ الخلفاء أن يجد شيئا ما عن الاشخاص المذكورين فى التواريخ من عثوره عليه فى أيه حالة مشابهة . وقد جمع بعض المؤلفين تراجم الكبراء فى جميـــع الالوان : وكتاب ابن خلكان معروف ، ولاتزال توجد عدة مجلدات من كـــتاب آخـــر أوسع نطاقا منه إلى درجة بعيدة ومتأخر عنه بما يقرب من قرنين . ولكن الاكثر أن يقتصر هؤلاء الجامعون على فئة خاصة من الاشخاص – الشعراء، أو الاطباء ، أو فقهاء أحد المذاهب ، أو القراء ، أو المحدّثون وما أشبه ، أو يعالجون أشخاصا اشتهروا بصفة أو عمل ما ، كالبخلاء أو الطفيليين .

وامـــتاز فى هذه الكتب أربعة مناهج أو تنظيمات . قـــــــد نصف أولها بالـــتحكمى، كمـــا نرى فى ذلك المخزن الكبير للمعلومات التاريخية ، أعنى كتاب الاغـــانى ، الـــذى يعتمد الترتيب فيه على مجموعة من مئة قصيدة ملحنة اختيرت إجابـــة لامر أحد الخلفاء : وأدى ذلك إلى مجموعة من الروايات المتصلة بالشعراء والموســـيقيين . والمنهج الثانى جغرافى ، إذ يتخذ الجامع أساس تنظيمه الاقطار التى ينتســـب إليها الاشخاص الذين يتناولهم . وأشهر أمثلته « يتيمة » الثعالبى ، حيث يجمـــع الشـــعراء حسب أقطارهم ، وعيون ابن أبى أصيبعة ، حيث يفعل مثل ذلك بالأطباء . والاساس الثالث حَوْلىّ . وتسمى الكتب التى من هذا النوع «الطبقات» فـــتعالج الموضـــوعات فيها وفقا للأجيال . وأشهر أمثلة هذا المنهج طبقات الحفاظ

Marfat.com

للذهبى ، وطبقات الشافعيـــة للسبكى . والاساس الرابع ، وهو الاكثر شيوعا من بعض النواحى ، ألف بائى ، وهو الذى اتبعه ياقوت .

ولعـــل نظـــام الطـــبقات هو أنفع المناهج للباحث التاريخى : إذ يوجد فيه الاســـتمرار ، الذى هو جوهر التاريخ . وتفوقه على النظام الجغرافى واضح ، لأن الدراسات الاسلامية مشتركة إلى درجة عظيمة ، بالرغم من انقسام العالم الاسلامى منذ وقت مبكر جدا إلى دويلات مختلفة ، بعضها لم يتصل بغيره إلا بصلات واهنة . وربطـــت اللغة المشتركة ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، بين أسبانيا ومصر وبين سورية والعراق ، حتى عندما انقطعت عرى الروابط السياسية ، ولم يعد هناك أمـــل فى الاتحـــاد ثانيـــة . وكان الشعراء ورجال العلم والحرف يرحلون من قطر إســـلامى إلى آخر، ويقيمون حيثما أملوا النجاح إقامة مؤقتة أو دائمة . حقا توجد أمـــثال تـــبالغ فى مساوئ النفى : ولكن كثيرين ذكروا أنه طريق النجاح . وأشهر الشـــعراء العرب جميعا ، المتنبى ، لم يستطع أن يبقى طويلا فى أى قطر : ووجد من يـــرعاه فى مصر ، وسورية ، والعراق ، وفارس . ولذلك يعلق النظام الجغرافى أهمية كـــبيرة عـــلى مـــا هـــو عارض . وضحَّى الذين اتبعوا الترتيب الالف بائى بعض تضحيات ، إن لم يكن بالاستمرار ، فبالتماثل أو بعض الصلات الاخرى التى تربط موضـــوعاتهم على أية حال. وكانت تضحيات ابن خلكان التى من هذا الصنف لها شأنها ، وارتكب ياقوت بعضها .

ثالـــثـــا مـــن الممكن أن نحول الاهتمام من المكان والاشخاص إلى الاحداث نفســـها . وسنرى أن أقدم صور الرواية التاريخية اتبعت ذلك الاساس . فقد كان الـــتاريخ المبكر للإسلام مجموعة من الحوادث ، سجلها شاهد عيان أو أكثر : وهيأ لهـــم مقتل عثمان ، وموقعة الجمـــل ، وموقعة صفين ، والتحكيم ، وفتوح البلدان

Marfat.com

المختـــلفة ، روايـــات متـــناثرة ، نظمـــت فيما بعد فى تاريخ مستمر . واستمرت الوســـائل، كما يجب أن نسميها ، تدون عن هذه الاحداث وغيرها بعد أن صارت التواريخ المستمرة مألوفة بزمن طويل . ومن الممكن أن تعالج الاحداث لا على أنها تستحق الذكر فى ذاتها ، بل على أنها تمثل مبدءا ما فى الطبيعة البشرية أو فى حكومة العـــالم . وأمدنـــا هـــذا التصور بعدد عظيم من المختارات ، وما أشبه ؛ ولا يفوق العـــربية فى هـــذا الصنف من الادب غير قليل من اللغات . وكثيرا مالا تبذل أية محاولـــة لترتيب المادة . ومما تجدر ملاحظته أن كتابى التنوخى اللذين من هذا النوع يتبع أصغرهما أساسا للترتيب ، أما أكبرهما فلا يتبع شيئا . فينقسم كتابه « الفرج بعـــد الشدة » إلى فصول تتناول مجموعات من الاحوال التى تخلص فيها الناس من خطـــر داهـــم دون توقع منهم للخلاص : مثل التخلص من الحيوانات المفترسة ، وقاطعى الطريق، والاحلام المفزعة ، وغيرهـــــــا. أما كتابه الأكبر ، « جامع الـــتواريخ » أو « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » ، الذى لم نعثر منه إلى الآن إلا عـــلى مجـــلدين من أحد عشر ، فيخلط عمدا المادة التى تتناول عددا كبيرا من الطـــبقات : ويظن المؤلف أنه يسهل الاحتفاظ باهتمام القارئ إذا تجنب التناسق. وبـــرغم ذلك لم يفلح تماما فى عزل الامور المتماثلة . وقد يبدو لنا بعدُ أن فى ذلك الكـــتاب شيئا ما شبيها بالاساس الذى ترتب عليه كتب « المسانيد » ، أعنى جمع المواد وفقا للراوى الذى يرويها .

وأوجه العناية إلى ثلاث خصائص واضحة فى هذا الادب .

أولا ، الاســـتقلال . حين بدأ التأليف الأدبى على النطاق الذى لا حظناه ، وجدت عدة فروع استخدمت فيها النماذج الاجنبية . وقلما يخفى الكتاب العرب ديـــنهم : بل اعترفوا به فى طبهم ، ورياضتهم ، وفلسفتهم . وقد بدأت جميع هذه الفـــروع من الأدب بالترجمة من الاغريقية : ويبدو أن من تلا الاولين لم يكف أبدا

Marfat.com

عـــن ترجمـــة النصوص الاغريقية والتعليق عليها . وفى باريس مخطوط يحتوى على أربع ترجمات منفصلة لرسالة واحدة من رسائل أرسطو .

وكان بعض الناس يشكون فى مهارة الذين ادعوا المعرفة بالعلوم الاجنبية فى هـــذه العـــلوم : ولدينا أكثر من خبر عن أشخاص أشرار قدموا الاسئلة الفلسفية الساخرة التى ظنها الفلاسفة أسئلة جادة وحاولوا الاجابة عليها . ونُظِر إلى المعارف الاجنبية فى عهود مختلفة فى رهبة وفزع . ولا نزاع فى كونها أجنبية الأصل . كذلك اعتُرف بجلب أدب الخرافات من الهند عن طريق فارس : ووجد بعض المقلدين ، بل ربمـــا الكـــثير مـــنهم . ومن العسير فى النحو أن نغفل صلته الظاهرة بالدراسات الســـريانية فى تلك المنطقة ، وكانت بدورها قائمة على الدراسات الاغريقية : بل لقد وجد بعضهم أثرا يونانى الاصل فى الاسم الذى أطلقه العرب على النحو ، وإن بدا ذلك أمرا مستبعدا .

حقـــا يضـــم الادب الاغريقى نظراء – ربمـــا – لجميع فروع التاريخ التى عددناها . فكان لدى الاغريق التواريخ العامة ، وتواريخ الاقطار والمدن ، وتراجم الاشخاص والطبقات ، والمنتخبات Collectanea والسجلات Memorabilia، التى تشبه فى خصائصها ما تطور عنه الادب العربى . وبرغم ذلك يبدو أنه لا يوجد أثـــر لأى ترجمة من مؤرخ إغريقى إلى اللغة العربية : ولم يعرف المفهرسون العرب تلك التواريخ التى تُعَد فى أوروبا نماذج الكتابة التاريخية . بل يبدو أنهم أهملوا أيضا المؤرخين السريانيين ، الذين كانت آثارهم تثير اهتمام اولئك المشتغلين بالدراسات القديمـــة . ربما أفادوا من المؤرخين الفرس ، مثل أولئك الذين يبدو أنهم وجدوا فى العهـــود المســـيحية ، ولكن هذه الافادة لا تتضح فى العصور السابقة على ذلك. ويظهـــر أن الـــتاريخ العـــربى مستقل عن هذه الكتب وقد نما أمام أعيننا ، وليس

137856

Marfat.com

استمرارا للتواريخ القديمة ، لاسباب ستشغلنا بعد ، وإنما هو نمو طبيعى ، جاءت به إلى الوجود حاجات المجتمع ، وتتجلى فيه خصائص خاصة به .

ثانيـــا ، كـــان المؤلفون فى النادر جدا مؤرخين رسميين ، يقتضيهم واجبهم تســـجيل مـــا تـــريد الحكومة تسجيله . وقد ذكر الطبرى وغيره حالات أمر فيها الخـــليفة بـــتأليف كـــتب ، مثل مجموعة الاغانى القديمة التى أمر المهدى بجمعها ، والرســـائل التى أمر القادر بتدوينها عن المذاهب الاربعة . ويبدو أنهم لا يذكرون حالـــة أمـــر فيها الخليفة بتدوين كتاب تاريخى ، وإن دونوا حالات عاقوا فيها مثل هـــذه الكـــتب أو منعوها . ويمثل التواريخ الرسمية كتاب « التاجى » الذى عنون باســـم « تـــاج الملة » ، وهو أحد القاب عضد الدولة ، ومؤلفه إبراهيم الصابى الكاتب المشهور . وقد ألف الرجل ، باعتباره كاتب عز الدولة بختيار ، ثانى أُمراء بغـــداد من البويهيين ، رسائل أَساءت إِساءة بالغة لابن عمه عضد الدولة ، الذى هاجمـــه بعد وفاة أَبيه وخلعه عن عرشه . وبرغم أن إبراهيم لم يكن إلا منفذا لاوامر مـــولاه ، فلا يعتبر مسئولا عما تضمنته رسائله من مشاعر ، وانما يُسأل عن التعبير وحـــده . طـــلب إليه عضد الدولة أن يكفر عن إِساءته فى تأليفها ، وكان التكفير المقـــترح أن يـــدون تاريخا رسميا لبنى بويه . ويقال إن جزءا كبيرا من هذا الكتاب مقـــتطف فى تاريخ مسكويه ، ولكننا لم نعثر بعد على الاصل ، وإن احتفظ ببعض قطع منه فى اليتيمة للثعالبى وتاريخ اليمينى للعتبى . وحين سأل أحد الزوار إبراهيم عمـــا يفعـــل ، فى أثناء اشتغاله بهذا الكتاب ، أجاب : « أباطيل أغفلها وأكاذيب ألفقهـــا » . فلما سمع عضد الدولة ذلك القول استبد به الغضب حتى أمكن بكل مشـــقة أن يمنع من قتل إبراهيم قتلة شنيعة . وقد راجع عضد الدولة نفسه الكتاب قـــبل إخـــراجه . ومن الممكن وضع تاريخ اليمينى أو أخبار غزوات يمين الدولة فى

Marfat.com

الهـــند للعـــتبى مـــع التواريخ الرسمية : وقد يقال الأمر نفسه عن الوصف المليء بـــالعجيج، الـــذى قام به عماد الدين الاصبهانى كاتب صلاح الدين ، لاسترجاعه بيت المقدس ، وأعطاه العنوان الفخور « الفيح القسى فى الفتح القدسى » .

ولا تخـــلو مجموعة من التواريخ الرسمية للخلفاء من القيمة ، ولكن مثل هذه التواريخ فقيرة ولا يوثق بهـــا ، إذ تقتصر على ما يرغب الحاكم فى تدوينه .

وقـــد كـــتب المؤرخون فى أغلب الأحيان لتعليم مواطنيهم ، وبرغم تأثرهم أحيانـــا بهـــوى ديـــنى أو وطنى ، يعتبر حيادهم العام سمة مدهشة فى كتبهم . ولا نســـتطيع أن نجـــد مثالا لهذا أحسن من تاريخ مسكويه . فقد كان حياته كلها فى خدمة وزراء السلاطين البويهيين : المهلبى وزير معز الدولة وابن العميد وزير ركن الدولة ، ثم فى خدمة عضد الدولة نفسه وابنه بهاء الدولة مباشرة : وربما كنا نتوقع مـــنه أن يكـــبح جماح نقده لأفعال هؤلاء السلاطين ، وما دام شرف العائلة كان يرتكـــز على أعمال أوائلها ، بالرغم من المعارك العنيفة التى نشبت فى الجيل الثانى مـــنها ، ولكـــن ليس من أى أثر لمثل هذا التحيز فى كتاب مسكوية . والأشخاص الذيـــن منحهم مدائحه التى ربما كانت تميل إلى المبالغـــــة هم الوزيران المهلبى وابن العميد ، اللذان كانا قد ماتا منذ زمن طويل حين أظهر كتابه ، ورويت أخبار مؤسسى دولة البويهيين دون أيه محاولة لاخفاء جرائمهم ، ووصمهم باتهام فظيع فى حالـــة معز الدولة . وكان تقديره لعضد الدولة له ما يبرره : فهو يلفت الانظار إلى محاســـن إدارته ، التى يظن أنها ترجع إلى تعليم ابن العميد الاول ، ويؤمل أن تتكافأ الخدمات التى أداها للدولة مع الجرائم التى ارتكبها. ونسب إلى ركن الدولة فضائل معيـــنة ، يبدو أن هذا السلطان كان يتحلى بها ، ولكنه اهتم ركن الدولة بالتضحية بشئون رعاياه فى سبيل شعور أحمق (كيشوتى) بالاخلاص لاصدقائه . وجعل من

Marfat.com

أبى الهـــيجاء مـــا يشبه البطل ، وهو من بنى حمدان ، الذين كانوا على عداء دائم للبويهيين . والغريب أن المدائح التى أسبغها أبو شجاع على عضد الدولة بعد ذلك بقـــرنين مدائح مليئة بالتحمس ، على حين كان مسكويه ، الذى كان فى خدمته ، بذلك الهدوء والعدالة .

والطبرى جامع للروايات أكثر منه مؤرخا ، ولكن كتابه يمتاز بما يشبه ذلك الحيـــاد . فإذا كان عبر عن إعجابه بمواهب المعتضد العسكرية ، فمن الواضح أنه كـــان يتحـــلى بها فعلا ، وبرغم أنه كتب كتابه فى عهد ذلك الخليفة ، ليس فيه ما يقـــارن بتمـــلق ابـــن المعتز . وربما كان المرء يتوقع أن يغار الخلفاء العباسيون من أســـلافهم ، فيحاولون إخفاء ضعفهم أو انحرافهم عن الطريق السوى ، ولكن من العسير أن نجد شواهد على مثل هذه الرغبة فى تاريخ الطبرى .

ويجـــب أن نجـــد الســـبب فى كون معظم هؤلاء الكتاب ألفوا تواريخهم لا بصـــفتهم مؤرخين فى البلاط ، وإنما بصفتهم أشخاصا قادتهم ميولهم إلى متابعة هذا الصـــنف مـــن الدراسات . فكان الطبرى نفسه صاحب أملاك ، يسّر له أبواه فى أوائـــل حياته الرحلة بعيدا، وفى مجال واسع للحصول على المعارف التى أفاد منها بعـــدُ فى محاضراته ومصنفاته : وعاش فيما بعد على الاجور التى ألف أن تجلبها له قوافـــل الحجاج الآتية من طبرستان ، حيث توجد أملاكه . وكان الدينورى المؤرخ قاضـــيا ، وتقـــلد التنوخى القضاء أيضا. وكان كثير من المؤرخين من الكتاب مثل مسكويه وهلال ، وكـــانوا يعملون فى الديوان العـــــام . وكان أبو شجاع وزيرا متقاعـــــدا .

Marfat.com

ولفـــت ريبرا **Ribera** الانظار إلى انه لم توجد منظمة عامة للتعليم إلى عصر نظـــام المـــلك الوزير السلجوقى ، الذى بنى المدرسة النظامية ، وكان التعليم حتى ذلك الحين متروكا للجهد الخاص . وقد نضمّ إلى ذلك حقيقة أخرى هى أن تدوين الـــتاريخ كان فى أغلبه متروكا للجهد الخاص أيضا . وقد نسمى المؤرخين معلمى الـــتاريخ بالمعنى اللغوى للكلمة : أى الاشخاص الذين تعهدوا بتهيئة المعلومات فى ذلـــك الموضـــوع ، لا أشخاص كلفهم شخص أو هيئة ما بتهيئتها . وكانوا أولا معلمين ، كما رأينا وستتاح لنا فرصة أخرى لنرى ، وكانوا أحيانا كتابا .

وحيـــثمـــا لم يكـــن للمؤرخ مورد خاص ، يبدو أنه استطاع أن يعتمد على مكافآت الطلبة الراغبين فى الحصول على ما يستطيع أن يقدمه لهم من معلومات ، وإن كان الامر الغريب أنه لم تصل إلينا روايات بهذا الصدد . ولكننا لدينا ما يكفى من الاشارات ليوضح أن أولئك المعلمين الذين كـــــــانوا يحلّقون فى المساجد أو يعقـــدون الجلسات فى منازلهم كانوا عادة يأخذون مكافآت عن ذلك ، وإن مد الاثرياء من المعلمين كالجبائى المتكلم تلاميذهم أحيانا بالموارد التى تيسر لهم حضور الجلسات من أموالهم الخاصة .

ثالـــثا ، نلاحـــظ مناهج معينة ابتكرها المؤرخون العرب لضمان الصحة فى تسجيل الأحداث . أحدها تأريخها بالسنة والشهر ، بل باليـــــــوم . ويصرح بَكِل **Buckle** مؤرخ الحضارة أن ذلك العمل لم يحدث فى أوروبا قبل ١٥٩٧ م . ونجـــده مـــتطورا عند الطبرى من بين المؤرخين العرب ، وينسب إلى مؤلف سابق عـــليه، هو الهيثم بن عدى ، المولود ١٣٠ هـــ ، تاريخ مرتب على السنين . وكان التقويم ضروريا لمثل هذا الغرض ، ويقال إن التأريخ بهجرة النبى من ابتكار الخليفة الـــثانى . ويوجـــد تدوين السنين والشهور فى أحد التواريخ الجاهلية التى سأوجه

Marfat.com

الانظـــار إليها قريبا . ويقول الجواليقى ، الذى جمع الالفاظ المعربة ، إن معنى كلمة « تاريخ » « التوقيت » وإنها معربة من الكلمة السريانية التى بمعنى « الشهر » . ومـــن الغـــريب أن يكون ذلك كذلك ، لأن المادة وان كانت لا توجد فى عربية الشـــمال ، يوجد مثيل لها فى لهجة الجنوب ، فى صيغة « ورّخ » ، التى يشتق منها « تواريـــخ » . وتوجدالحـــروف نفسها مجتمعة فى نقش فينيقى ، يرجع إلى ما قبل الـــتقويم الإسلامى ببضعة قرون ، وترجمه بعض الباحثين بكلمة « ميعاد » ، ولكن الـــنص أنقص مما يمكننا من معرفة دلالته الخاصة . وإذا كانت الكلمة العربية تعنى حقـــا « الـــتوقيت » فكونها وليدة الصيغة العربية القديمة « ورّخ » أرجح من كونها سريانية، وقلب الواو همزة ليس أمرا شاذا . ولكن قد يظن البعض أن الكلمة أجنبية ومعناها « السنين » أو « الحوليات » .

ومـــن الطـــبيعى أن لم يحتفظ المؤرخون الاغريق ولا الرومانيون ، ولا كتاب الانجيل ، بالتواريخ احتفاظا واضحا : وكان لدى الرومانيين تقويم ثابت أقل فسادا مـــن نظام الأغريق . ومن الواضح أن التقويم الإسلامى ، وإن كان لا يفى بأغراض الإدارة ، كـــان وحده الذى تناسب أحسن التناسب مع تسجيل الاحداث، إذ إن عدد الايام فى كل سنة كان ثابتا دقيقا ، وكانت الشهور قمرية كاملة ، دون زيادة أى يـــوم . ولما لم تكن السنة الإسلامية دورة شمسية ، كما كان يسميها القدماء ، وإنما مجموعة من اثنى عشر شهرا قمريا ، يجب أن نعترف بأن كلمـــة « التاريخ » لإبانة الميعاد صحيحة صحة فريدة .

والمـــنهج الـــثانى لضمان الصحة هو « الاسناد » وهو سلسلة الرواة الذين يمكن أن نتبع آثار الرواية عن طريقهم إلى شاهد العيان الأصلى الذى رواها . وقد صـــارت هـــذه الدراســـة فى ميدان أقوال النبى وأفعاله علما : ويتألف من اختبار الحـــلقات الـــتى وصل كل حديث عن طريقها إلى رجال أى جيل . وقد تفرع من

Marfat.com

هـــذه الدراسات دراسات أخرى كثيرة : فلا بد أن يلاحظ قارئ معجم البلدان ليـــاقوت أن المهمة الحقيقية لجامعه تمكين المحدّث من تتبع كل راوية للاحاديث إلى موطـــنه . وكتاب السمعانى العظيم فى الانساب ، بمعنى النسبة ، هو مساعدة لتتبع المحدّثين . كذلك تفرعت دراسة التاريخ بالطريقة نفسها من دراسة الحديث : فقد كـــان دارسوا الفرعين أولا هم هم : ثم صار التاريخ فرعا متميزا تدريجيا ، وصار الاخـــبارى شخصا غير المحدث ، ونضيف إلى ذلك أنه كان أقل منه مرتبة . وبرغم ذلك استمرت فكرة وجوب تتبع كل رواية ، كى تكون جديرة بالثقة ، فى مجموعة معـــروفة من الرواة إلى مصدرها ، سائدة على التأليف التاريخى حتى عصر متأخر . وهـــناك كـــتب تـــبدو محتوياتها من الخفة وعدم الاهمية بحيث يعجب المرء للجهد المـــبذول فى تدوين اسم كل راو والتاريخ والمكان اللذين سمع فيهما الرواية ؛ مثال ذلـــك مصارع العشاق للسّراج ، وهو مجموعة من الاحوال التى يفترض ان رجالا أو نســـاء ماتوا فيها من أجل العشق ، ويسجل فيه المؤلف تسجيلا صحيحا دقيقا الـــتاريخ الذى سمع فيه الخبر ويذكر تفاصيل ممأثلة عن الرواة . وهناك كتب تسير على نفس الاسلوب وأقوالها واضحة الكذب بحيث يعجب المرء من جرأة الكذب . ولكـــن بالـــرغم مـــن أن نظرية الاسناد سببت متاعب لا نهاية لها أحيانا ، بسبب الابحـــاث التى ينبغى القيام بها لتوثيق كل راو ، وإلفهم وضع الاحاديث وتقليدها أحيانا فى سهولة ، لايمكن الشك فى قيمتها فى ضمان الصحة، والمسلمون على حق فى فخـــرهم بعلم الحديث . وفى السجلات القديمة الأخرى ، نضطر إلى الأخذ بما يروى لنا على مسئولية المؤلف : فمن النادر أن يخبرنا المؤرخ الاغريقى أو الرومانى بمصدر معلوماته . وقد اكثر البحاثة الالمان خاصة من الكتابة عن « نقد المراجع » محـــاولين تتـــبع روايـــات الكتاب الانجيليين وغيرهم إلى المصادر التى حصلوا على مواردهـــم منها . وحيثما لا توجد هذه الموارد، لا تعطينا هذه المحاولات فى أحسن

Marfat.com

حالاتها إلا فروضا ترجيحية . أما فى آثار الطبرى ، والبلاذرى ، والتنوخى ، فيوفر علينا الكتاب أنفسهم هذا الجهد. أما هؤلاء المهتمون بالاخبار أكثر من اهتمامهم بمصادر ها فيغفلون عادة الاسناد .

ونعـــترف بأن عدة أسباب اجتمعت لعرقلة جهود هؤلاء الذين حاولوا أن يضمنوا الصحة عن هذا الطريق . وأولها عدم جدارة الذاكرة البشرية بالثقة ، ونجد أمثـــلة ذلـــك حـــتى بين من اشتهروا بقوة حافظتهم . وثانيا الصعوبة التى واجهها كثيرون فى ملاحظة الحقائق وبنات الخيال ملاحظة دقيقة ، والتمييز بينها : ولذلك يصـــرح نيتشـــه Nietzsche بأن الانسان غير المتحضر يحيا لونا من ألوان حياة الاحـــلام ، يـــزوده الوهم فيها بصور لا تمت للواقع بسبب فى تفسيره للتجارب. وثالـــثا أثرت الفكرة التى تمسكوا بها وتذهب إلى وقوع شىء ما فعلا لأن الراوى ذهـــب إلى وقوعـــه ، أثرت تلك الفكرة فى صدق كثير من سجلات الاحداث . وغالـــبا ما تبنى إعادة بناء التاريخ القديم ، حتى فى أيامنا وفى أوروبا الناقدة ، على هـــذا الاســـاس . ورابعـــا وجـــد بين المحدثين الذين لا يحصى عددهم جماعة من الاشـــخاص المستهترين ، الذين شوهوا أو كذبوا عمدا . وبرغم ذلك كله ، تبلغ صحة أشهر المؤرخين العرب مرتبة سامية ، وتجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية .

Marfat.com

الفصل الثانى

التاريـــخ الجاهلى

لايدين التاريخ العربى بشىء للتاريخ الاغريقى ، وبالقليل للتاريخ الفارسى، إن كان يدين له فعلا ، وذلك أمر واضح : ولكنه يظهر أيضا مستقلا عن التواريخ العـــربية الجاهـــلية . ولديـــنا القول الشائع « الشعر ديوان العرب » ، أى سجل أعمـــالهم . وهـــذا القول الذى يبدو عليه أنه قديم ، يقتضى أنه لم توجد سجلات أخـــرى فى الحجـــاز . ويؤكد هذا القرآن ، الذى كثيرا ما يتهم المكيين بالأمية . والـــنقوش الجاهـــلية المدونة بالعربية التى جعل منها القرآن اللغة الفصحى غاية فى الـــندرة : مـــن الـــندرة بحيث تبدو أقرب إلى أن تكون تجارب لكتابة لغة لم تكن تستخدم فى ذلك الغرض من أن تكون أمثلة لعمل مألوف : لأن أحد هذه النقوش مـــدون بخط سامى آخر . والنصوص النبطية التى عثر عليها دوتى **Doughty** فى شمـــال بـــلاد العـــرب مدونة بلهجة آرامية مختلطة خلطا عجيبا بالألفاظ والأقوال العـــربية . وهناك اقتراب شديد من العربية الفصحى فى بعض النقوش الدينيـــــة **Confessionad** الـــتى عثر عليها فى جنوب بلاد العرب مدونة بالخط الحميرى أو العـــربى القـــديم ؛ أما النقوش الكثيرة الاخرى التى عثر عليها الرواد فى شمال بلاد العرب فمدونة باللهجات الاخرى ، ولها أهميتها العظيمة لتنوع الخطوط المستعملة، ولكنها قلما تدل على وجود أدب .

Marfat.com

كذلـــك لا تـــدل خصائص الخرافات الجاهلية المدونة فى أمثال كتاب تاريخ مكة للأزرقى ، وتواريخ الطبرى وياقوت الجاهلية ، والمجموعات الكثيرة المحفوظة فى كتاب الاغانى ، لا تدل على وجود ما يستحق أن يسمى تاريخا . بل إن الوثائق التى نجدهـــا أحيانـــا منسوبة إلى ذلك العصر ، تثير قدرا كبيرا من الشك . وقد أدخل الدينورى المؤرخ واحدة من هذه الوثائق فى تاريخه . فقد أرسل من يلقب الكرمانى، فى أواخر العصر الاموى ، إلى أحد أبناء أبرهة بن الصباح ، آخر ملـــــــوك حمير (كما يقول) ، وكان يقيم فى الكوفة ، يسأله أن يعيره صورة المعاهدة التى عقدت بين ربيعة واليمن فى العصر الجاهلى ، فأرسلها إليه : فقرأها الكرمانى على أشراف ربيعة واليمن . والوثيقة مسجوعة ، وتحتوى على إشارات إلى شعائر وثنية مختلفة ، وإن بدأت بالعبـــــــارة « بسم الله العلى الاعظم ،الماجد المنعم » وتستشهد « الله الأجـــل ، الذى ما شاء فعل » . ويسمى الملك الذى عقدت المعاهدة أمامه تبع بن ملكيكرب ، ولا تبين علاقته بالمتعاهدين .

وتاريخ الدينورى ، كما سنرى هنا ، قليل القيمة ، إذ إن هذه الوثيقة ليست أقـــدم مـــن المـــؤرخ كـــثيرا ، مثلها فى ذلك مثل كثير من الاشعار والرسائل التى يستشـــهد بها فى أخباره ، فيما يبدو. وحقا يشك فى صحة نسبة الكتاب نفسه إلى الديـــنورى . والصعوبات التاريخية المتعلقة بهذه الوثيقة لها خطرها، حتى ولوكان ما بهـــا من آثار صحيح ، حين تقرر كيف خلطت القبائل المتحالفة دماءها بالخمر ، ثم شرحها الفريقان كلاهما ، وجزت نواصيهما ، وقلمت أظافرهما ، وجمعت ذلك فى صر ، ودفنته تحت ماء غمر : لانه توجد أدلة على أنهم كانوا يفعلون ذلك لتوكيد المعاهدات . ولكن لا شك أن الامر الذى يثير أعظم الدهشة فى هذه الوثيقة التزام الســـجع فى عربيـــتها الفصحى . كان يجب أن نتوقع وجوده فى إحدى اللهجات

Marfat.com

المستعملة فى الآثار التاريخية إلى عهد قريب من ظهور الإسلام . ويثور الشك نفسه فى الاحـــوال الاخرى التى يورد فيها المؤرخون تآليف جاهلية نثرية . ومن الواضح أنـــه فى هذه الحالة لم يذكر الموضوع الذى عقدت فيه المعاهدة ، وإن بدا ذلك على جـــانب كـــبير من الأهمية . ويذكر الشهر الاصم ، وهو رجب ، ولكن لا تذكر السنة.

وإذا تصـــادف أن كانت هذه الوثيقة صحيحة ، وجب أن نراجع كثيرا من أفكارنا : لأن المؤرخ لا يذكر هذا الحلف باعتباره مثلا وحيدا ورد إلينا من العصر الجاهـــلى مـــن هذا النوع من الوثائق ، وإنما باعتباره أمرا طبيعيا أن تحفظ أعمال الجاهليين فى موضع ما : ويمكن أن يؤلف تاريخ دقيق ومستمر بعض الاستمرار من مجموعـــة مـــن أمـــثال هذا الحلف . وحقا لا يشكو مؤرخو هذا العهد من نقص الســـجلات ، كما شكا المؤرخ الأرمينى موسى الخورينى **Moses of Khorene** وهـــم مؤمنون كل الإيمان أن الوسيلة الصحيحة لنقل التاريخ هى الرواية لملاحظة غيـــاب الراوى. بل عندما وجدت المدونات من أى نوع ، كان المسلمون أميل إلى نسيانها: إذ إنها تنتمى إلى ماض ، طرحوه وراء ظهورهم. وكانت المآثر التى دونتها الآثـــار ، كمـــا ســـنرى ، مآثر آلهة وثنية ، صارت الآن ما يسميه الإسرائيليون المحظورات . ولكن الإسلام أدى أيضا إلى هجرة واسعة، وكان ما جلبه المهاجرون معهم دينا جديدا ، لا صلة له أو على صلة صغيرة بالدين القديم .

وســـأوجه الانظار فيما بعد إلى أول هذه الاسباب لغموض التاريخ الجاهلى كما يظهر فى المجموعات العربية . ولا بد أن السبب الثانى ، وهو التنقل والهجرة ، أسهم إسهاما قويا فى بلوغ تلك النتيجة . وعُدّت المدينة موطن المعرفة ، كما نعرف مـــن الامام الشافعى وغيره : وبرغم ذلك قلما ترجع هذه المعرفة إلى ما قبل هجرة

Marfat.com

الـــنبى إليها ، لأن ذلك الحادث أدى إلى تغيير جوهرى فى سكانها. فترح كثير من ســـكانها القدمـــاء : واكتظت المدينة بالمهاجرين الداخلين فى الاسلام . وتلا ذلك سريعا الفتوح الاولى للخلفاء، أو صاحبها هجرات قبلية : ولكن القبائل احتفظت بعزلـــتها إلى درجة ما ولحقبة طويلة فى مواطنها الجديدة . ولا بد أن الحالات التى كـــانت يحـــتفظ فيها المهاجرون بمدونات يحملونها معهم كانت نادرة ، إن وجدت إطلاقـــا . وكـــان فى جـــنوب بلاد العرب نقوش تاريخية دون فيها الملوك حروبهم وأعمالهم ، وأحيانا عزائم مجالسهم . والمسألة هى إذا ما كان لديهم ، بالاضافة إلى مدونـــاتهم عـــلى النحاس والحجر التى لا يمكن أن تقرأ إلا فى المواضع التى نُصبت فيهـــا، أدبٌ ، أعـــنى نسخا من النصوص أنفسها مدونة على مواد أقل رداءة من الســـابقة، من البردى ، والرق ، والسعف . ويومىء رحالة محدث إلى وجود مثل هـــذه النصوص ، ولكن إيماءته غامضة ولم تُحقَّق . وقد اعتبر باحث ألمانى فى نقوش جـــنوب بلاد العرب وجود مثل هذا الادب أمرا مؤكدا ، وقد ذكر كتاب الاغانى فعلا نصوصا حميرية مدونة على مواد يستطاع حملها : ومهما يكن الأمر فيجب أن تترك هذه المسألة الآن دون أن يقرر فيها أمر ما . أما ما يوضحه اكتشاف النقوش وحـــل رموزها فهو أن عملية تسجيل الاحداث وُجدت فى تلك المنطقة منذ زمـــن لا تعيـــه الذاكرة .

ويـــبدو أنه لم يعن بهذه الآثار إلا اثنان من المؤلفين العرب : الهمدانى ، مؤلف صـــفة جزيرة العرب ، ورسالة عن الابراج والحصون فيها : لم يصل إلينا منها غير جزء صغير ؛ ونشوان الحميرى ، مؤلف معجم يلقى بين حين وآخر أضواء على لغة تـــلك النصوص . ولا تزال بعض النقوش التى درسها الهمدانى موجودة . وترد بين حين وآخر شواهد من أشعار يظن أنها منظومة باللغة العربية الجنوبية عند النحويين، الذيـــن احـــتفظوا ببعض الصيغ النحوية التى أيدت النقوش بعضها ، ومن المؤكد

Marfat.com

صحة بعضها الآخر ، وإن لم نجد نقشا إلى اليوم يحتوى على أمثلة منها . وقد أحضر وِلسْتد Wellested وكروتندن Crutenden انضابطان الرحالتان الانجليزيان النسخ الاولى من هذه النصوص إلى أروربا . وكان أول من فسرها فى شىء من الصحة فى ألمانيا ، هو أزياندر Osiander ، الذى نُشر كتابه بعد وفاته. ومن الطبيعى أنه اقترف عدة أخطاء ، بسبب توحيده بين العبارات السبئية والعربية الفصحى . ولذلك ترجم عبارة خاصة بقوله « لأن الله استمع إلى طلبه » ، على حين أن المعنى الحقيقى هو « مأمورا من الكاهن » . وقد جمع العالم الفرنسى هليفى Halévy والرحالة النمسوى جلازر Glaser مجموعات كبيرة من النقوش أو نسخا منها . وسرعان ما كشف النقاب عن أربع لهجات ، هى لغات الممالك العربية الجنوبية الأربع التى لا حظها الباحثون الاغريق: وبرغم ذلك من المستطاع تصنيف هذه اللهجات فى صنفين، نسميهما مجموعة (س) ومجموعة (هـ) وفقا لاستخدام كل من هذين الحرفين فى بعض اللواحق التى تلصق فى أول الكلمات أو آخرها. ومن الممكن تتبع تقدم الدراسة فى النشرات البطيئة الظهور التى كانت تصدرها هيئة المنقبين الفرنسيين French Corpus Inscriptiorum ، والتى تداول الفصل الحميرى منها ثلاثة من المحررين ، وهو الفصل الذى يتوقع العلماء استمراره فى شغف .

ولا تزال واحدة من الممالك الرئيسية الأربع التى تنتمى إليها هذه النصوص – لان عدد الممالك كان فعلا أكثر من ذلك كثيرا – تحتفظ باسمها باعتباره إقليما أو منطقة من بلاد العرب . تلك هى حضرموت ، المذكورة فى العهد القديم . وكثيرا ما تذكر سبأ فيه أيضا، وإن كان موقعها يبدو مخالفا لما تزعمه النصوص . ومَعين أقل شهرة ، ولكنها لها أثرها فى المدونات الانجيلية . وعرف الاغريق قتبان ،

Marfat.com

ولكـــن التاريخ الخارجى سكت عنهم عند غيرهم. وبرغم ذلك أمدتنا هذه المملكة بنصـــوص فى الآثـــار أغـــزر كثيرا مما أمدنا به غيرها . وحين تحل مشاكل النحو والالفـــاظ ، إن حلت ، ستعرف عن منشآت الجمهورية القتبانية أكثر مما نعرفه عن أيـــة دولة أخرى من هذه الدول ، بالرغم من أننا ربما لم نعرف الكثير عن مهارتها الحربية .

وقـــد نسمى كثيرا من النقوش سجلات تاريخية ، وإن كانت تتألف عادة من أســـباب تقـــديم بعض النذور إلى الآلهة. وتستهل مثل هذه النقوش باسم أو أسماء مقدمـــى النذور، ويليها قائمة بالنعم التى استحق الآله من أجلها النذور . ومعظم هذه النعم شخصى : إكسابهم حب سادتهم سبب عام جدا للنذور . وسجل على هـــذه الآثـــار كـــثيرا ايضا النجاح فى المغامرات التجارية ، والشفاء من المرض ، والحصول على الحبوب وموارد المياه .

وتنتمى إلى هذا الصنف ، النصوص التى من هذا النوع ، وكثير مما اكتشف أولا وأُرســـل إلى أوروبا ، ومن الطبيعى أنه لا يستطاع اعتبارها تاريخية : وإن كان الضـــوء الـــذى تلقيه على الاحوال الاجتماعية بل والسياسية له شأنه فى الغالب، والاعـــلام المدونة فيها لها أهميتها من نواح كثيرة : وبرغم ذلك ، توجد نصوص ، طويـــلة أحيانـــا ، تعـــالج أمورا لها أثرها فى الملوك والمجتمع بأسره ، وتستحق هذه النصوص أن تسمى تاريخية . ولم يُبْعَد النسخ والصور . وقد أسعدنا الحظ فى أحيان قليلة بالحصول على مجموعة كاملة من النقوش التى تعالج أحداثا واحدة أو مجموعة مـــنها : ومن الممكن الافادة من المجموعة الاخيرة فى إقامة جداول للدول وفى بعض الاحيان فى اكتشاف الاحداث التى ميزت ظهور الدول، أو اتســـــاع رقعتها ، أو انهيارهـــا . وهـــى تعـــالج الشئون الداخلية خاصة ، كما نتوقع من سياسة هذه

Marfat.com

الـــدول ؛ فتســـجل ألوان الكفاح المدمر الناشبة بين المجتمعات العربية ، ولا تتصل بالشـــئون الخارجيـــة إلا بعـــد التدخل الحبشى . والغريب أنها خالية من الزخرف والمبالغة ، فيما يبدو. وتمثل لذلك بمجموعة النقوش الحميرية ١٤٥٠ م C.I.H. : أَهـــدى بعض الاشخاص الذين ضاعت أَسماؤهم تمثالا ذهبيا لمولاهم تَعْلَب ريـــام ، أَو تَعَلَّب ريام : ويبدو أن كلمة « مولى » تعنى إلها صغيرا .

« لأنه أعان بنى حاشد فى مدينة ناعط على قبائل حمير . تقدم مئتان وتوغلوا فى أرض حمـــير، حيـــث ذبحوا رجلا ؛ ولأن مئة وخمسين تقدموا إلى مارد فى أرض أَلـــبان، حيـــث أسروا رجلين . ولأن خمسين توغلوا فى منطقة دلج ، حيث ذبحوا رجـــلا . ولأنهم هاجموا الحبشة فى أرضه ... وذبحوا رجلا فيها . ولأن جماعة من الـــبدو ، مـــئة مقاتل وعشرة، أغاروا على بَرَك ، وقتلوا رجلا. ولأن سادته ، بنى همـــدان ، قدمـــــوا إليه خيلهم وبسبب هذه الهدية ذبح فهدين ، وجميع ... فى هـــذا ... » ثم يتقـــــدم المؤلف إلى بعض النعم الشخصية التى أنعم عليه بها أو يضرع من أجلها .

وفى C.I.H. نقـــش طويـــل آخـــر (رقم ٣٣٤) من النمط نفسه ، وقد ضـــاعت سطوره الأولى ، ولكنه يبدون قائمة بالخدمات التى أداها الإله تعلب ريام نفســـه . وقـــد قدم سعد أحرس بن غضب، المذكور بعد ، بعض القرابين ، ولعلها تمثال ذهبى ، تشريفا للإله ، لأنه :

« حمـــاهم فى الحمـــلات الـــتى قاموا بها لمعاونة سيدهم شعر اوتر ملك سبأ وريـــدان ، ابـــن ألهـــان نبفان ، ملك سبأ ، ولأنه أنقذ سيدهم شعر أوتر وجنده

Marfat.com

الســـبأيين والحميريـــين ، عندما خرجوا لقتال الاعز ملك حضرموت ، وجنده من الحضرميين (؟) : عندما هزم الاعز وجنده فى ذات غراب هزيمة نكراء .

وقد عين شعر أوتر سعد بن غضب للأشراف على معسكر الملك والفريقين مـــن الجـــند: ووضـــعه على رأس مئتى محارب من بنى هملان . فهاجم بنو ردمان المعســـكر فى يوم تقدمه : ولكن سعد أحرس بن غضب هاجم بكل من أتى معه من بـــنى هملان ، وأجلوا بنى ردمان عن المعسكر وقتلوهم ، بينما سلم معسكر سيدهم شعر أوتر وفرقتيه .

واعـــترافا بـــالجميل أشفى تعلب ريام خادمه سعد أحرس بن غضب ، من جرحين أصيب بهما عندما هاجم بنو ردمان فى المعسكر . ولعله يواصل حمايته شعر أوتر فى مدينتيه ماوة وسوّار ، وينقذه. ثم أطرى سعد أحرس بن غضب قوة وقدرة تعـــلب ريام، رب ترعة ، لأن سيدهم شعر أوتر وفرقتيه عادوا سالمين من جميع هذه الاعمال : ومنح تعلب خادمه سعدا عودا سليما ، وبضائع وأسرى وغنائم أرضته. ولعل تعلبا ... إلخ » .

والغـــرض الاساسى كما سنرى من هذه النصوص النذر ، أى تقديم الشكر لإله خاص : فيدوّن السبب ، الذى يصير ذا أهمية تاريخية عندما يكون خدمة ذات صبغة عامة ، كما فى تلك الحالات التى كانت المساعدة فيها فى الحرب . ونقترب فى نقش جبل مأرب الثانى من الوثائق التاريخية الحقة ، إذ إن السجل ليس جزءا من شـــكر الإلـــه . وهـــو من الحقبة المسيحية ، أى عصر الاحتلال الحبشى ، ويفتتح افتتاحا مسيحيا .

---

* See Glaser's Reise nach Marib, 1913 , p 148.
انظر جلازر : رحلة إلى مأرب ، ١٩١٣ م ، ص ١٤٨ .

Marfat.com

« بقـــوة وجـــلال ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس . نقش هذا الأثر أبـــرهة ، ممـــثل الملك الحبشي رمحيس زبيمان ، ملك سبأ وذوريدان ، وحضرموت والـــيمن ، والـــبدو فى الجبل وتهامة. ونقش هذا الحجر عندما عين يزيد بن كبشة مشرفا، وكانت أعماله مناقضة لتعهده . فقد عين خليفة على بعض القبائل، وقائدا للجـــند إلى جانب الخلافة . وكان معه عدد من القبائل والامراء (تعدد أسماؤهم) . وعـــندما أرسل الملك جريحا ذو زنبور للطواف فى المنطقة الشرقية بأمر من الملك ، قتله يزيد » . ويستطرد الخبر بعد أن يصف بعض أعمال يزيد هذا الأخـــــرى : « ثم سمع الملك الأخبار ، واجتمع الاحباش والحميريون ، آلاف منهم ، فى شهر ذو قيـــازان من سنة ٦٥٧ ، وهبطوا فى وديان سبأ ، ونظموا أنفسهم من سروة على نـــبط إلى عـــبران ، وعـــندما بـــلغوا نبط أرسلوا رماتهم ضد قبيلة ... علوة ، فاستســـلمت » . فعـــاد يزيد هذا إلى الطاعة بعد وقت قصير ، عندما انتشرت الاخبار بتحطم السد. يلى ذلك بعض التفاصيل العسكرية ثم يوصف إصلاح السد وصفا مسهبا .

وهذا النقش ، البالغ ١٣٦ سطرا ، والمؤرخ بـــ ٦٥٨ – ٥٤٣ م ، مدون بـــلهجة غاية فىالصعوبة . ولعل اضطراب الاسلوب إنما هو واضح بسبب معرفتنا الناقصـــة أشـــد النقص بلغته ، أو لأنهم لم يكونوا قد بلغوا مبلغ الفصاحة فى تلك الـــلهجة . وهـــو يمـــثل تقدما على النمط الاقدم ، حيث لم يكن الغرض تسجيل الاحـــداث، وانمـــا تعليل تقديم القرابين للاله . وواضح أن غرض المؤلف فى نقش أبرهة تسجيل الاحداث المهمة . وجدير كل الجدارة بالملاحظة أن هذه الطريقة فى التســـجيل غير مأمونة . إذ يذكر الملك ، مؤلفه ، فى نقش طويل مهم نشر حديثا ،

Marfat.com

كيـــف أزال جميع الاسطر التى نقشها ملك مهزوم فى قصوره ومعابده . ولا بد أن هذه الاسطر كانت تحتوى على سجلات مملكة غير مشهورة ، هى أوســـان .

وجديـــر بالملاحظة أن الاحداث تؤرخ فى نقش أبرهة بالشهر والسنة ، دون أن يخصص أى يوم من الشهر . ويبدو أن ذلك يتفق مع الاشتقاق العادى لكلمـــة « تاريخ » ، التى يفترض الباحثون فى أصول اللغة أنها آتية من الكلمة السريانيـــة « إرَخَ » التى تعنى « شهرا » .

ولمحـــة واحدة إلى هذه النقوش كافية لتبين لنا لماذا لم يعن المسلمون الأولون بمثل هذه السجلات لماضيهم . إذ أن ما تسجله ليس تاريخا قبليا أو وطنيا مباشرا ، كما نرى ، وإنما النعم التى أنعم بها إله خيالى ، وما قوبلت به من شعائر وثنية . ولا يمكـــن لاسمـــاء هذه الآلهة نفسها إلا أن تسبب الذعر أو التسخيف : ويثير تقديم الصور المشاعر نفسها . وإذا كان حقا أن اليهودية انتشرت فى جنوب بلاد العرب بين العصور الوثنية والمسيحية ، فإن مسلك ذلك الدين حيال الآلهة والصور الوثنية مـــن جميع الاصناف لا يقل عداء عن الإسلام الأول : فالجمهور قد تعلم طرح مثل هـــذه الآثـــار قـــبل أن يسود الإسلام بزمن طويل . وتماثلها فى الكراهة، النقوش المســـيحية ذات الاهمية التى قلما يستطيع الباحث الحديث أن يبالغ فى قدرها : لأن من الواضح أن الاستعمار الحبشى لم يترك فى جنوب بلاد العرب ذكـــريات حميدة أو شـــاكرة له . بل كانوا ينظرون فى فخر واعتراف بالجميل إلى عمل سيف بن ذى يزن المجيد فى طرد هؤلاء الغزاة بمعونة الفرس : ويظـــن أن عبد المطلب جد النبى رأس وفدا إلى اليمن لتهنئة الفاتح ، ويدعى الباحثون الاحتفاظ بخطبة قالها فى تلك المناسبة . ولكن العلم الحديث الذى لا يخاف تجدد أية عقيدة وثنية مهملة يعلق قـــيمة عالية على الوثائق التى طرحت فى أجواء الغموض عندما ظهر الإسلام بحكم

Marfat.com

طـــبيعة الظروف عندئذ . وفى الامكان ، بسبب العدد الكبير من النقوش التى عثر عليها ونسخت فى جنوب بلاد العرب ، من ممالك مختلفة وأسرات مختلفة ، ولا زال كثير منها ينتظر النشر، على حين من المرجح أن غيرها لا يزال ينتظر من يكتشفه ؛ فى الامكـــان جمع تاريخ تلك المنطقة بطريقة لم يكن من المستطاع الاستشراف إليها قـــبل أن تبدأ هذه الاستكشافات . وجدير بالملاحظة أن الالفباء الحميرية ، كما تسمى ، يبدو أنها كانت مستعملة فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، إذ عثر حديثا عـــلى نقوش مدونة بذلك الخط فى شمال شرقى بلاد العرب ، بجوار الكويت ، وفى الشـــمال الغـــربى منها ، بجوار مدائن صالح، التى اكتشف فيها كثير من الخطوط . ومـــع ذلك لم تكتشف نقوش تاريخية ذات قيمة شبيهة بقيمة التواريخ إلا فى جنوب بلاد العرب . ولعل سبب ذلك أن التنظيم السياسى لتلك المنطقة كان أكثر تطورا كـــثيرا ، وأن العمليات كانت تجرى فيه على نطاق أوسع من الأقاليم الأخرى فى شبه الجزيرة ، التى نجد أن النصوص التى عثر عليها فيها عبارة عن نقوش متواضعة النطاق من شواهد قبور أو قوائـــــم بأعلام أو ننور .

وإذا عددنـــا أعمـــال الملوك والمجالس العامة تاريخا ، فقد نضم إلى النقوش التاريخية ما يسجل منها التعيينات على اختلاف أنواعهـــا ، كتعيين أراض للآلهـــة أو مـــزايا لطبقات خاصة ، أو جباية الضرائب أو تنظيم الحقوق فى المياه . ولسوء الحـــظ أن اللغة فى معظم الاحوال تواجهنا بصعوبات خطيرة جدا : فليس لدينا نحو ولا معجـــم ، وإنمـــا نعتمد على صدفة ورود كلمة ما فى عدد كاف من النصوص المختلفة لنتمكن من اكتشاف معناها مع شىء من التأكد . أضف إلى ذلك أن مجال هذه الدول الجاهلية غير يقينى جدا ، بسبب تغيير الاسماء المحلية ، وإن كنا لا نملك بعـــض النقوش حسب ، عن إحدى الممالك ، وهى أوسان ، بل لدينا مجموعة من

Marfat.com

تماثيل الصغيرة المنقوشة التى تحفظ صور عدة أفراد من الاسرة المالكة . ويلاحظ سترابو الجغرافى ، الذين ندين له بوصف حملة اليـــوس جلوس Aelius Gallus الفاشـــلة ، ســـرعة تغـــير الاسماء فى بلاد العرب وما ينتج عن ذلك من صعوبات جغرافية .

وبقيت المواد لترجع إليها التواريخ ، ما بقيت هذه النقوش، وما عرفت اللغة المدونـــة بهـــا ، وإن لم تؤلف تواريخ فعلية . وكان لدى عرب الجنوب فى الجاهلية حقبة ، كما رأينا ، ذات أهمية أولية لتدوين الاحداث . ورأى جلازر Glaser أنها معاصـــرة لسنة ١١٥ ق ٠ م . ولا شك أنها حقبة مهمة فى تاريخ الدولة السبئية . وعـــلى الرغم من عدم تأريخ كثير من النقوش التى لا حظناها ، نستطيع الحصول عـــلى الاتصـــال والاســـتمرار مـــن أسماء الملوك ، الذين يذكرون آباءهم عادة ، وأجدادهم أحيانا ، بل أجدادهم الاولين .

وربما قيل إن التاريخ الممكن كشف اللثام عنه من هذه النصوص سيكون فى بعـــض الجوانب أقل قيمة مما تمدنا به التواريخ الإسلامية ، وأكثر اختلافا فى بعضها الآخـــــر . وتدل النصوص التى مثل بها على عمليات تافهة : فإن كانت عبارة « ذبح رجلا » صادقة تماما ، لم تكن الحملات المدونة أكبر من الغارات القبلية التى تســـجلها الحماســـة ومـــا شابهها من كتب . وقد ألفنا أن نرى قوائم الخسائر فى الحروب الصغيرة بين الجمهوريات الإغريقية القديمة تضم المئات أو العشرات على الأقـــــل . ولكـــــن النقوش القتبانيـــــة التى نشرها وفسرها رودو كناكس Rhodokanakis تكشـــف عن نظام سياسى معقد لا يوحى البتة بأى نظام قبلى بدائـــى. إذ نقـــرأ فيهـــا عـــن مجالس (للرأى) تبصرية وتشريعية ، نجد أمثالها فى مـــنظمات الدول الهلينية . ويقتضى ما يسميه رودو كناكس « مبدأ الاعلان » ،

Marfat.com

أى عملية نقش أعمال هذه المجالس على الحجر ووضعها حيث يمكن قراءتها قراءة عامة ، يقتضى أننا نتكلم عن أمة قارئة ، ذات منظمات سياسية تكشف عن صنف من التقدم لا يمكن بلوغه إلا خلال مراحل لعله من الممكن أن نستعيد قصتها .

وبينما تتيح هذه النقوش الفرصة لاجراء أبحاث مغرية فى فروع مختلفة من القانون والسياسة ، تمدنا أيضا بمعلومات نفيسة عن أديان الدول القديمة ، وتلقى بعض الضوء على ما وقع فى المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة من تمهيد للإسلام . وعندما ظهر البحث عن القديم فى العصر الأموى والعباسى الأول ، بذلت المحاولات لإعادة تبين العقائد الوثنية القديمة ، ويمثل تلك المحاولة كتاب الاصنام لابن الكلبى ، الذى سيقابلنا فيما بعد . ولم تكن الآلهة المعبودة فى جنوب بلاد العرب هى الآلهة المعبودة فى الحجاز، التى نستطيع أن نجد بعضها فى النقوش النبطية فى الشمال. وتتردد أمامنا ، فى نقوش الجنوب ، الآلهة ، التى لا نستطيع النطق بأسمائها، وطبقات الآلهة ، التى لا نستطيع ان نتبين مرتبتها النسبية الآن . ويعزى إليهم، كما قد رأينا ، النجاح فى الحرب : ومن ثم تسجيل الحوليات ، كما لاحظنا، القرابين أو الآثار التى اكتسبتها بخدماتها . ومن الممكن استنباط أشياء عن نظام العقائد ؛ وعن الاشخاص الأوثق اتصالا بالعبادة من غيرهم ؛ وعن وحيهم ، وعن الطريقة التى يحصل بها على أجوبة الاسئلة : وهى أحيانا شديدة التعقيد ، دالة على الصلات الغامضة بين الاضرحة المختلفة . ويبدو أن الآلهة كانت هنا أجدادا للملوك كما كانت الآلهة فى بلاد الإغريق .

وأية مجموعة من المعلومات التاريخية يمكن استخراجها من نصوص لم يقصد منها أن تمدنا بها ! وسيادة ألفباء واحدة ؛ مهيأة تهيئا بارعا للغة التى تستخدمها ، فى جميع شبة الجزيرة كافية لأن تمدنا بنتائج هامة . فلا بد أن جميع شبه الجزيرة وقع

Marfat.com

فى زمـــن مـــا تحت سيطرة أمة متعلمة واحدة ، أو لا بد أن أمة ما حصلت على التفوق الفكرى فثقفت غيرها . وما عرفه الإغريق القدماء عن بلاد العرب حصلوا عليه إما من قصص الرحالة أو من الارتياد العلمى المنظم فى عهد الاسكندر الأكبر، وقـــد حصلوا على معلومات أبانت النقوش أنها صحيحة صحة عجيبة . ولكن ما عثرنا عليه من عملات وتماثيل صغيرة يدل على اتصال ببلاد الإغريق القديمة أوثق ممـــا ذكر المؤرخون الإغريق . ويتجلى تأثير أثينا فى العملات المكتشفة فى اليمن : وهـــو ظاهر فى فن النحت، الشبيه بالفن السابق على القديم Pre-classical أكثر مـــن شبهه بالفن القديم Classical . وتشيع فيه صور الملوك ، ونقوش الحيوانات والطيور، وبعضها حسن النقش : ولكننا لم نجد بعد صورا لآلهة وإلاهات . وتمدنا بقايـــا المعـــابد والقصور ، والنقوش التى كانت عليها ذات مرة ، بآثار من الآثار المعمارية المتصورة على نطاق واسع .

وتحـــل الأعلام فى النقوش كثيرا من المشاكل التى تواجه دارس التوارة . إذ تقابلـــنا هـــنا ألفـــاظ وعبارات ، لم تعرفها العربية الفصحى ، ولكنها ترد فى لغة فلســـطين القديمة . وتجد الاسماء التى فقدت معانيها فى السجل الانجيلى ، وفسرت أحيانـــا تفســـيرا خاطئا ، شرحا بسيطا هنا . وتوجد الاسماء القديمة للآلهة العربية متوارية عن الانظار فى الاسماء العبرية التىلم يشك فى وجودها فيها إطلاقا : بل تمدنا أسماء العهد الجديد نفسها بمثال لهذا . فقد سميت كلُوبا أو حلَـــفَى باسم إله وثنى شأنها شأن مُرْدَخاى .

ولكـــن يأتى عهد ، كما رأينا ، تختفى فيه الآلهة القديمة من النقوش، ويظهر عوضا عنها اسم الرحمن الدال علىالتوحيد ، والسائد على بعض السور الاولى من القرآن ، وترد عبارات مسيحية فى نقش متأخر ، قريب من مبدأ الإسلام . والبقايا

Marfat.com

القليـــلة الـــتى رأت الضوء من النقوش التوحيدية ذات أهمية بالغة لسبقها الالفاظ القرآنية خاصة ، وإن لم يظهر على وثنية النصوص القديمة ما يربط بينها فى وضوح وبين الوثنية التى يعارضها القرآن . وتظن الروايات المأثورة أن التوحيد الذى سبق المســـيحية فى جـــنوب بـــلاد العرب كان يهوديا ، بل تحتفظ السجلات المسيحية الإغريقية بمناقشات دارت بين المسيحيين واليهود ، يظن أنها كانت فى تلك المناطق. ومـــع ذلـــك يبين توحيد النقوش عن شبه قليل باليهودية : ولا نستطيع أن نبرر ذهابنا إلى أنهما دين واحد. ولعل سيادة دين توحيدى ما فى جنوب بلاد العرب قبل فـــرض الغـــازى الحبشى المسيحية هى التى تفسر السهولة الظاهرة التى أعتنُق بها الإسلام فى هذه المنطقة .

وإذن فلدينا حق تصنيف مؤلفى هذه النصوص القديمة مع المؤرخين العرب . وإن لم تكـــن الـــلغات الـــتى استعملوها عربية المسلمين ، ووجب أن نستنبط أن مؤلفيهـــا كـــانوا يرفضون أن يطلق عليهم لفظ العرب، الذى يبدو أنه كان يطلق عندهم على البـــــدو . أمـــــا النقوش المؤرخة فترجع ، كما قد رأينا ، إلى حقبة حديـــثة نسبيا . واختلفت آراء الخبراء فى مدى رجوع هذه النصوص إلى أكثر من ١١٥ ق ٠ م . كمـــا اختـــلفت فى تـــتابع ومجال الامبراطوريات أو الدول التى اكتشفوا وجودها ، وتـــــرك بعضها آثار غامضة فى السجلات الانجيلية أو القديمة أو النقوش المسمارية .

ولا أستطيع أن أتخيل ميدانا للبحث أكثر جاذبية للباحث المسلم الذى يرغب أن يكون رحالة ورائدا من جنوب بلاد العرب . ومن الممكن أن العراقيل التى يقال إنهـــا تواجه الرائد الأوروبى فى ذلك القطر مبالغ فيها : فلا تتفق أقوال الرحالة فى تـــلك المسألة . ولا شك أن الرحالة المسلم لن يعوقه كثير من العقبات التى يشكو

Marfat.com

منها بعض الرحالة . ومن المتعذر أن نظن أن الرحالة الأوروبيين القلائل الذين زاروا هذه المنطقة استطاعوا أن يأتوا على ذخائرها الأثرية ، الكثيرة المتنوعة ، بمقارنتها بما تركته مدن الشام الفينيقية ، أو قرطاجنة العاصمة القديمة مثلا . فلقد خلفت دولة قتبان الغامضة وحدها من آثار منظماتها، وقوانين مجالسها النيابية وأعمال ملوكها أكثر مما خلفته صيدا المشهورة أو قرطاجنة الأكثر شهرة . وإن السجل المحفور على حجر أو نحاس يتصل به ما يجعلنا أوثق اتصالا بالماضى من الرواية المنقولة شفاها من جيل إلى جيل أو التى ينقلها كتبة متعاقبون من نسخة إلى نسخة . ويقول شاعر ، مقارنا بين مدائحه والجوائز التى أخذها أو يؤمل أن يأخذها:

وفى تلك الاحوال ، لم تضع جوائز شكر الجميل ، وإن وجهت توجيها خاطئا ، وإنما بقيت على العصور .

Marfat.com

الفصل الثالث

بواكير التاريخ العربى

يكشـــف الحديث المشهور « الإسلام يجُب ما قبله » عن السبب الرئيسى لمـــا يغلب على علاج المؤرخين العرب للعصر الجاهلى من غموض وشك . وتروى القصـــص عـــن الداخـــلين فى الإسلام الذين سألهم عمر أن يرووا بعض التجارب الجاهـــليـــــــة أو ينشدوا بعض الاشعار الجاهلية ، فكان جوابهم « لقد جب الله ذلـــك بالإسلام ، فلم الرجوع ؟ » وقد وجدت هذه الفكرة التى تذهب إلى ابتداء حقـــبة جديدة ، وأن كل ما سبقها يجب أن يطويه النسيان ، فى أوقات أُخرى ، فى الـــثورة الفرنسية مثلا . ويبدو أن هذه الفكرة سيطرت عليهم فى الإسلام . وكان ذلـــك سبب عدم معرفة المؤرخين العرب معرفة عملية بالتاريخ المهم الذى تكشف عـــنه الـــنقوش ، والذى احتفظ به قدماء الرومان الإغريقيين . وكانت هزيمة حملة اليوس جلـّوس Aelius Gallaus التى دبرها أُغسطس عملا فى عظمة هزيمة حملة نابـــليـــــون على روسيا . وقد عزت السلطات الفرنسية فشلها فى الحالة الأخيرة إلى المناخ : أما الشجاعة الروسية فلا دخل لهـــا فيـــه . ولكننا نمتلك وصفا روسيا للمســـألة ، يروى قصة مخالفة . أما فى حالة الغزو الرومانى فليس لدينا إلا الوصف الـــرومانى ، الذى يزعم أن العرب لم يبدوا أثرا للمقاومة : وإنما أهلك الغزاةَ المناخُ والاحـــوال الطبيعية لبلاد العرب . ولو كنا عثرنا على وصف عربى ، لكنا وجدنا قصة مخالفة . وعلى أية كان لابد أن نتوقع أن يحتفظ العرب فى ذاكرتهم بنصر بهذه الشهرة : ولكن الامر ليس كذلك . وأخبار الحوادث التى وقعت قبيل عصر النبى غامضـــة ومشوهة : وإذا كانت النقوش التى عثر عليها جلازر فى مأرب، من عهد

Marfat.com

لحكم الحبشى ، تسجل إصلاحا للسدّ الذى كان إذ ذاك متهدما ، فمن الواضح ن الأهمية التى أسبغها كتاب العرب على انهيار ذلك السد مغرقة فى المبالغة . ومن لمحتمل أن يؤدى تدهور مملكة إلى انهيار خزان ، ولكن ليس من السهل أن يسبب لأمر الأخير الامرَ الاول ، كما يقول مؤلف . ومن الواضح أن الخرافات التى دعى وجود مستعمرات يهودية فى يثرب وليدة الخيال : ولا يستطيع أن يقطع أحد ما إذا كانوا عربا تهودوا – وهو ما لعله يتفق مع الآيات القرآنية – أو يهودا عرّبوا. وقد تناولت عدة رسائل تاريخ مكة ، وتاريخ المدينة ، ولكننا نحب أن نشير لى أنه لا يعرف شيء عنهما قبل عصر النبى . أما كتاب الازرقى ، وإن كان قديما، فمجموعة من الخرافات .

ويوجد إلى جانب الحديث القائل بأن الإسلام يجب ما قبله مبدأ آخر عارض الاحتفاظ بالسجلات : ذلك هو النظرية الذاهبة إلى عدم تدوين أى كتاب سوى القرآن . وقد جمع كاتب أندلسى هو ابن عبد البر ، الاحاديث الواردة فى هذا الموضوع : ومعظمها ، الذى قدمه أولا ، يمنع التدوين . وينبغى ألا يوجد غير كتاب الله : وفى أحسن الاحوال أن يدون إنسان شيئا ليساعد ذاكراته ، فإذا ما حفظه عن ظهر قلب ، وجب عليه إحراقه . وقد أشير على الخليفة الثانى بتدوين « سنن النبى » : فاستخار الله شهرا كاملا ، ثم رفض . وقد رأى الخليفة الاموى القدير عبد الملك بعض أخبار مغازى النبى مدونة على صورة كتاب فى يد أحد أبنائه ، فأمر بإحراقها . وأمر الصبى بقراءة القرآن ومعرفة السنن : وأبى عليه أى لون آخر من الدراسة .

وروى ابن عبد البر بعض الاحاديث الاخرى التى تعارض الأحاديث السابقة : وتذهب إلى أن النبى نفسه أوصى بالتدوين . ولكن الرأى الغالب كان

Marfat.com

فى جـانب المنـــع : وكان ذلك سبب تأخر نشأة التأليف النثرى* . ويذكر ابن عـــد البر سببين للمنع . أولهما قوة ذاكرة العرب ، التى جعلت تقييد المادة الادبية عـــلى مـــادة مـــا أمرا غير ضرورى ، ما دامت ذاكرتهم من القوة بحيث تستطيع الاســـتغناء عن مثـــل هذه المساعدة . وثانيهما الخوف من إنتاج منافس للقرآن . ونســـتطيع أن نحـــذف السبب الاول منهما . فليس هناك ما يدعونا إلى ان ننسب لعرب الشمال والوسط ذاكرة أقوى من ذاكرة الجنوبيين ، وقد بقى أهل اليمن — كمـــا رأينا — يدونون النقوش التاريخية قرونا . والمرجح أن السبب الثانى ، الخوف من منافسة القرآن ، هو السبب الحقيقى الكافى . وقـــد اتخذوا ذلك مبدأ استعاروه من اليهود [1] ، الذين منعوا تدوين الكتب ، معتمدين فى ذلك على ما فهموه من إحدى فقرات سِفْر الجامعة ، ولم ينتجوا أدبا مكتوبا قرونا غير العهد القديم .

ويجب أن نضيف إلى هذين القولين اعتبارين آخرين . بازدياد أهمية الحديث ، ظهـــرت طـــبقة الحفـــاظ ، الذين كانت صناعتهم البحث عن المعرفة الصحيحة بـــالأحداث . وكـــان من الممكن ان تسوء أحوال هذه الصناعة بصورة خطيرة ، لوشاع بين الناس أنه من المستطاع الحصول من مجموعة من الكتب على المعرفة التى يكد آخرون كل الكد فى سبيل الحصول عليها . ونحن على يقين أن شيوخ نيسابور أو أصفهان كانت لديهم المعلومات التاريخية التى لا يمكن الحصول عليها إلا منهم ، وكـــان ذلـــك قبل انتشار فكرة التدوين ؛ فإذا ما تيسر الحصول على جميع هذه

---

* انظر مختصر جامع بيان العلم (القاهرة ١٣٢٠ م) .

(١) أستبعد استعارة العرب ذلك المبـــدأ من اليهود ، وإنما كرهوا التدوين خوف اختلاط المدون بالقرآن ، وشغله المسلمين عن دراسة القرآن وحفظه، وغير ذلك من الاسباب العربية البحتة — المترجم .

Marfat.com

المعـــرفة مـــن الكـــتب ، كسدت بضاعة هؤلاء المعلمين . وعجيب ألا تؤثر تلك المدونات الكثيرة التى أخذت تتجمع بعد قيام الدولة العباسية فى صناعة الحفاظ . وبرغم ذلك ، كان أكثر مؤلفى الكتب من أهل هذه الصناعة أنفسهم ، وقد وصل الطرفان إلى اتفاق احتفظا به عدة قرون . هذا الاتفاق هو« الإجازة » ، التى تلزم ألا يأخذ القارئ الكتاب إلا عن مؤلفه شخصيا أو عن ثقة : وهكذا وفد الناس فى عصر الطبرى عليه لسماع التاريخ والتفسير منه شخصيا ، وإننا لنعرف أسماء رجال بقوا الرواة الثقات للتاريخ جيلين بعد وفاته . ولم يثقوا بالمعرفة التى تأتى عن طريق الكتب بدون رواية . ويروى خبر سيقابلنا أن المدائنى العلامة فقد شهرته لتصحيفه كلمة ؛ إذ استُنتج أنه عرف الخبر بالقراءة لا الرواية . وكانت شهرة الرجال تعتمد عـــلى ما تحتفظ به ذاكرتهم ، لا مايقيدونه بالتدوين . وقد تفوق على الطبرى نفسه رجـــلٌ أقـــل شهرة منه كثيرا، هو القاضى ابن البهلول ، إذ أخذ الاثنان ينشدان الاشـــعار ، فظهـــر أن ذاكـــرة الطبرى أضعف من ذاكرته كثيرا . وقد جمع رجل البلاط المؤرخ ، محمد بن يحيى الصولى ، مكتبة كبيرة ، كان يستطيع أن يخرج منها فـــورا المجلد الذى يحتوى على جواب أى سؤال يوجه إليه . ولكن عمله هذا جعله هدفا للاشعار الهاجية الساخرة ؛ إذ ينبغى أن يكون قادرا على الاجابة من الذاكرة بدون الرجوع إلى الكتب .

ثانيا ، ربما كان سبب عدم الثقة بالكتب المدونة الذى بقى زمنا طويلا كثرة الانتحـــال والوضع . وقد سجل المؤرخون عدة حالات منه : فقد كشف الشعبى الفقيه عن وضع الرسالة التى ادعى المختار بن أبى عبيد أن محمد ابن الحنفية أرسلها إليـــه لتزكيـــته أمام شيعته : وتقول رواية إنه أقام رأيه هذا على حداثة العهد بختم الرســـالة، وتقـــول أخرى إن محمدا يلقب فيها بلقب لم يطلقه على نفسه . وروى

Marfat.com

مســـكويه أن المهـــلبى الفاضل الكفء نفسه لم يكن يتتره عن الوضع إذا ما خدم هدفه. ويروى المؤرخ نفسه خبرا مطولا عن وضع الوحى المنسوب إلى النبى دانيال، حـــتى اســـتطاع أحـــد المرشحين للوزارة أن يفـــوز بمنصبه بواسطة ذلك الوحى الموضـــوع : وتـــروى تفاصيل العملية التى يمكنه القيام بها لإعطاء الكتابة الحديثة مظهـــر القدم حتى لا يتيسر كشفها . وقد حصل ابن البواب الخطاط على الشهرة بتقليده خط ابن مقلة تقليدا متقنا حتى إن أحدا لم يكن يستطيع أن يميز بينه وبين ما كتبه ذلك الخطاط العظيم . وتبين الشهرة التى اكتسبها الخطيب البغدادى لكشفه زيـــف اتفـــاق كان يظن أن النبى امر بكتابته ليضمن ليهود خيبر الحقوق، تبين أنه وجد خبراء قليلون بهذا النوع من النقد . وتروى قصة شائعة تمثل كـــــرم الوزير ابـــن الفرات أن أحد الناس وضع عليه رسالة يوصى فيها أحد حكام الاقاليم به ، فنفذ طلبه ، ولكنه أرسل إلى الوزير يعبر عن شكه فى صحتها . فأعلن الوزير أن لا أساس لشكوكه ، واعترف بصحة الرسالة : ثم أدخل الرجل الواضع فى خدمته .

ونتبين من كثرة الروايات التى كان المؤرخون يذكرونها من الخطبة أو الرسالة الواحدة كثرة فائقة ، أنهم كانوا يفضلون الرواية الشفهية على المدونات ، فى تلك الحقـــبة التى ظهر فيها أعاظم المؤرخين . ومن أشهر خطب العرب تلك التىألقاها الحجاج المشهور بالطغيان عند دخوله الكوفة . ولدينا من هذه الخطبة أربع روايات متعاصرة تقريبا ، فى كتب الجاحظ ، والمبرد ، والطبرى ، والبلاذرى . أما المؤلفان الاولان فهمهمَـــا الجـــانب اللغوى من الخطبة ، وأما الاخيران فالجانب التاريخى . وتختـــلف الـــروايات الاربع ، مع اتفاقها فى أكثر مادة الخطبة ، اختلافا كبيرا فى تـــرتيب العبارات ، وفى كثير من الجمل ، وحين يقارن بعضها ببعض يظهر فى كل مـــنها بعـــض الحـــذف والاضافة . وتوجد وثيقة غاية فى الاهمية باعتبارها أساسا

Marfat.com

للقضـــاء، تتضمن تعاليم الخليفة الثانى إلى قاض عيّنه . ولدينا عدة نسخ من هذه الوثيقة الموجزة ، ولكن بينها جميعا خلافات كبيرة . ولونسخ رواة هذه الوثائق من نصوص قديمة لما عذرناهم لهذه التغييرات التى أجروها إما إهمالا وإما تحكما، ولكننا نعـــذر هذه الخلافات إذا كانت ترجع إلى الرواية الشفهية . ويخبرنا المؤلفون الذين يذكرون نسخا من رسائل ربما كانوا يمتلكون أصولها أنهم يروونها عن الذاكرة .

وإذن فالنظريات التى كانت تقف عقبة فى سبيل التدوين هى :

(١) الحديث بأن الإسلام يجب ما قبله .

(٢) المبدأ القائل بوجوب عدم وجود كتاب مدون غير القرآن.

(٣) أن صناعة الحفاظ جعلت الكتب المدونة غير ضرورية .

(٤) أن الوثائق المدونة كانت غير موثوق بها .

وقد تغيرت جميع هذه النظريات بمرور الوقت .

(١) فجعـــل تفســـير القرآن بعض المعرفة التاريخية أمرا لا يمكن الاستغناء عنه . فـــلقد كـــان القرآن كثيرا ما يعالج الاحداث الجارية، وخاصة فى الآيـــات المدنيـــة : ويوجـــد الآن فرع كامـــــل يسمى « مناسبات الآيات » يقوم عـــلى تحديـــد المناســـبات التى أوحيت الآيات فيها . والنصوص التى تعالج الاحـــداث الجارية عامة إلى درجة كبيرة ، وتتجنب ذكر الاعلام : فلم يكن يـــدرك معناها الحق إلا من أوحيت إليهم . وهكذا لا يصرح فى السورة التى تتناول تهمة باطلة وجهت إلى عائشة بكنه التهمة ، ولا من روّجها . وكانت المســـألة مشـــهورة إذ ذاك ، ولكـــن لا بد من معرفة التفاصيل كى تفهم الســـورة، بعد جيل . ووجد المفسرون فى السورة نفسها آيات تعالج أحداثا يفصل بين كل منها سنون : فمن الضرورى أن يكون لدى المرء بعض المعرفة بـــالأطوار الرئيـــسية فى حياة النبى ، ليقرأ القرآن ويفهمه . كذلك يوجد فى

Marfat.com

السـ ـورة الثالثة آيات يروى أنها ننتمى إلى الحقبة التى تلت بدرا مباشرة ، والتى تلت أحدا مباشرة ، وغزوة الخندق ، ووفد نجران الذى أتى إلى المدينة بعـد ذلك بزمن طويل ، فالمفسر الذى يريد أن يشرح قوة الآيـات مضطر إلى الحصول على بعض المعرفة التاريخية أو جلها .

ولكن القرآن يحتوى أيضا على كثير من أخبار التاريخ القديم ، ويكثر فى هـذه الاحوال ذكر الاعلام ، ولكن القارئ يسره فى كل حالة أن تذكر معلومات إضافية . وعلى أية حال ، يسره أن يستطيع ترتيب الحوادث ترتيبا عـلى صـلة زمنية ما بعصره . ولكنهم على الاقل لم يشجعوا الرجوع إلى الكتب التى فى أيدى اليهود والمسيحيين ، إن لم يكونوا منعوه فعلا . وسنرى أن محمـد بن إسحاق ، مؤلف سيرة النبى ، جلب على نفسه اللوم لاشارته إلى هـذه الكـتب . وبـرغم ذلك كان الداخلون فى الإسلام من اليهود والمسـيحيين على أية حال ميالين إلى الانتفاع بما علق بذاكرتهم فى إشاراتهم إلى الاحداث المذكورة فى القرآن ، وفعلوا ذلك بصورة بارزة . وإننا لنعرف أسماء الاشخاص الذين قاموا بذلك فى زمن مبكر .

(٢) وكـان ترتيب المسلمين طبقات الرجال بحسب الاسبقية فى الإسلام أحد الاسـباب التى جعلتهم يرتبون أخبارهم فى التاريخ الإسلامى ترتيبا زمنيا . وكـان الوقت الذى قضاه كل فرد مسلما ، هو أساس تصنيف المسلمين فى تقديـر العطـاء المفـروض لكل منهم فى ديوان العطاء . ويوجد كثير من الاشـارات إلى هذه « السابقـة » . وفى التحكيم المشهور خاف المدافع عـن معاويـة أن يعترض على توليته لأنه لا « سابقة » له ، إذ لم يدخل فى الإسلام إلا عندما فتحت مكة . ولكن قين من ناحية أخرى إنه صهر النبى ، ولا شك أن ذلك أرضى الرأى العام عنه . وقد حفظ ابن إسحاق قوائم بمن

Marfat.com

غزوا المغازى مع النبى ، ولا شك أن ذلك لاهميتها فى ذلك الغرض . وبرغم ذلـــك نجد فى أخبار ابن إسحاق نفسه بعض الشكوك فى ترتيب الحوادث ، ونجـــد شيئا من عدم الاطمئنان إلى الأمر نفسه ، فى كتب الإمام الشافعى ، الـــذى كان من المشغوفين بالبحث ، وعاش طويلا فى المدينة، مع أهمية ذلك فى إثبات الترتيب الزمنى لآيات القرآن .

(٣) أعطيـــت المدن والاقطار المفتوحة حقوقا مختلفة وفقا لما بذلته من مقاومة فى وجـــه الفـــاتحين . وأحيانا أدى قيام الثورات بعد الخضوع إلى تغيير هذه الشـــروط ، كما فى حالة مصر . ومن الواضح أن المحافظة على مثل هذه الحقوق يتعذر ، إن لم يستحل ، بدون التأريخ المستمر للحوادث . ويبدو أن الامـــور كانت ميسرة فى العصر الأموى قبل أن تحفظ نسخ أمثال هذه المعـــاهدات فى العواصـــم ، أو فيما يشبه دار المحفوظات . فكانت المناسبة حينئذ عرضية . وكان من المستطاع حين يقتبس من المعاهدات ، الاقتباس مـــنها شفويا ، وكان ذلك سبب وجود عدة أخبار مختلفة كل الاختلاف تســـجل مثلا المعاهدة المهمة التى اتفق فيها على ومعاويـــة على التحكيم : إذ إن الشـــهود مختلفون . ومن الشاق الحكم على صحة المعاهـــــــدات أو الصكوك المذكورة ، بدون المعرفة التاريخية .

وأمثلة هذه الحاجة فى فتوح البلدان للبلاذى . وهكذا عندما وجدوا أنفســـهم يواجهـــون مسألة كيف يعاملون أهل قبرص بعد ثورتهم حينما استشـــار الوالى الذى أخضعهم عددا كبيرا من الفقهاء ، كان من الواضح أن هـــؤلاء الفقهـــاء اضـــطروا إلى فحص المدونات ليعرفوا كيف فتحت قـــبرص، وعـــلى أية شروط ، وكيف عولجت أمثال هذه الحالة من قبل . وكـــانت السوابق التى احتاج إليها الفقهاء لا يستطاع الحصول عليها إلا

Marfat.com

مـــن كـــتب السجلات أو من الاشخاص المشتغلين بحفظها فى ذاكرتهم . وكـــانت المدينة مركز هذه المعرفة ، حيث أخذ الخبراء يظهرون فيها بعد وفاة النبى بوقت قصير ، حين ازدادت الحاجة إلى مثل هذه المعرفة ازديادا سريعا . وكان القرآن دقيقا فى وصف أهل المنطقة التى أنزل فيها بالأمية ، حـــتى إن الـــلغة العـــربية لم تستعمل فى الدواوين إلا فى منتصف العصر الأمـــوى، فى عهد عبد الملك بن مروان : فكان « الموظفون الدائمون » حـــتى ذلـــك الوقت من أهل الاقطار المفتوحة بالضرورة، فواصلوا العمل بالـــلغة والاساليب التى كانوا يألفونها . ويستطيع المرء أن يتخيل أن اتخاذ العـــربية الحجازيـــة لغة رسمية فى دواوين الامبراطورية لا بد بالضرورة أنه ســـابق على اتخاذه فى تأليف الاخبار . ويدل الخبر المذكور فوق ، إن كان حقا ، على أن عبد الملك نفسه لم يرغب فى أن يتجه عمله الجديد إلى هذا الاتجاه: وبرغم ذلك يجب أن ننسب إليه التطورات التى تولدت طبيعيا منه. فقـــد أظهر طبقة الكتاب ، الذين اتسع نطاق معلوماتهم إذ ذاك وأصبح موســـوعيا ، على حين كان العامل المهم فى إنماء أسلوب نثرى . ولا شك أنـــه كان مضطرا إلى الاعتماد على أبحاث النحاة واللغويين ولكن هؤلاء لم يكونـــوا قـــادرين عـــلى مســـايرته . ولدينا قصة من القرن الرابع لعلها صحيحة، تصور هذه الحالة . فقد كان أبو سعيد السيرافى النحوى ، الذى طـــبقت شهرته اللغوية الآفاق إذ ذاك ، فى حفلة طلب السلطان فى أثنائها أن تكـــتب عـــنه رسالة رسمية . فسئل أبو سعيد أن يكتبها ، فعجز ، على حـــين أنجـــزها احد الكتاب فى سرعة . ويروى المعجبون بعلى بن عيسى الوزير كيف كان قادرا على كتابه الرسائل التى ترسل إلى الولاة مباشرة :

Marfat.com

ولم يكن محتاجا إلى أن يعمل لها مسودة ، إذ لم يكن يغير منها شيئا . وقد صار الكاتب فيما بعد المؤرخ ، لا لأنه ذو معرفة وثيقة بالامور ، وإنما لأنه كاتب درِب .

وكان ذلك النتيجة البعيدة لعمل عبد الملك ؛ وهناك أسباب لبقاء المراكز العليا فى الدواوين مشغولة فى كثير من الاحيان بغير المسلمين ، وغير العرب ، ، بالرغم من اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، وكان الكتاب العرب نادرين ، إن كانوا وجدوا إطلاقا [1] ، وليس علينا إلا أن نتذكر الطبرى ، والدينورى ، ومسكويه ، وإبراهيم الصابى ، وعماد الدين الاصبهانى ، ومن إليهم . وبالرغم من ذلك لم يزعزع ظهور هذه الصناعة مركز الحفاظ، هؤلاء الذين احتفظوا بالاشياء فى ذاكرتهم ، والتى كانوا يحتاجون إلى خدماتهم فى ذكر السوابق التى يقاس عليها فى التشريع والقضاء بصفة مستمرة . لأن لفظ « السنة » ، الذى معناه اللغوى العادة، صار معناه السابقة التى عملها النبى ، اتسع نطاق النظرية القانونية الذاهبة إلى أن العمل الذى قام به شخص مؤهّل ربما يتكرر القيام به ، فتجاوز مجال أعمال النبى .

وأصبح الرجال الحاصلون على ذخيرة من المعلومات يحتمل أن تثير انتباه المستمعين ، قُصّاصا ، اتخذوا حلقات فى المساجد ، ورووا القصص. وكان الناس أميل إلى القصص التى تدور حول الاشخاص البارزين فى تاريخ الإسلام، أو الانبياء المذكورين فى القرآن ، وربما يرجع

---

(١) ذلك رأى خاطىء ، فالكتّاب العرب موجودون منذ الجاهلية، وكثروا فى صدر الإسلام كثرة واضحة ، وارجع إلى كتاب نشأة الكتابة الفنية عند العرب للمترجم – المترجم .

Marfat.com

إلى هـــذه القصص معظم ما تجمع حول هؤلاء الاشخاص . وغالبا ما يتهم القصـــاص الاولـــون ، الذين أخذ المؤرخون المتأخرون معلوماتهم منهم ، بالاخـــتراع أو الكـــذب ، لأمر أو آخر . فيقـــال إن عوانـــــة ، الذى يـــروى الكـــثير ، كذب لإرضاء الامويين : ويبدو أن رواياته الموجودة فى الكـــتاب المنســـوب إلى البلاذرى تؤيد هذه التهمة . إذ تصور عبد الملك الأموى كريما متسامحا ، على استعداد لمهادنة ابن الزبير بأية شروط، إذا ما تـــنازل عن طلب الخلافة. أما جميع الاعمال الوحشية والمنافية للدين التى وقعـــت فى أثناء إخضاع ثورة ابن الزبير فالحجاج هو المسئول عنها : وفى الاوقـــات الـــتى كـــان عبد الملك يستطيع أن يكبح جماحه ، فعل ذلك . وحيثما استطاع أن يصلح ما أفسده الحجاج ، فعل . وكان كريما أيضا فى احترام أعدائه الذين تغلب عليهم ، ولم يستحسن أن تســـــاء معاملتهم أو مخاطبتهم . ومن العسير الحكم على الاحتمالات فى أمثال هذه المسائل . وبرغم ذلك من الواضح أن اشتهار جميع هؤلاء الجامعين الاولين للمعارف بالصـــدق أمر مشكوك فيه . فإذا كان المؤرخون المتأخرون اعتمدوا على أقوالهم ، إنما كان ذلك لانهم لم يجدوا مصادر أخرى .

(٤) أدى الغـــنى فى صدر الإسلام إلى ظهور طبقة لا عمل لها ، والميل إلى القديم هـــو هواية مثل هذه الطبقة فى كل مكان . وإذ نمت المدن الإسلامية وجد كـــثيرون شـــغوفون بمعرفة كيف أسست و كيف بنيت بناياتها الرئيسية : ووجـــدت أيضا مشاكل ناتجة عن التنظيم القبلى فى صدر الإســـــلام ، الذى بحسبه أعطيت للقبائل المختلفة أحياء متباعدة فى المدن التى أسست.

Marfat.com

وجـــد علم التاريخ لهذه الأسباب جميعا بالرغم من عدم تشجيع الحكومة . وجعلت مطالب النظام التشريعى منه أمرا ضروريا . واتخاذ أحكام النبى « سنة » بـــدلا من أعمال الجاهلية جعل تدوين هذه الأعمال أمرا لا يمكن الاستغناء عنه ، واســـتلزم ذلـــك معرفة بعض الأشياء عن الاشخاص المذكورين فى الأخبـــــار ، والـــرواة خاصة . أضف إلى ذلك أن الإسلام كان مستمرا : فلم يكن لوفاة النبى النـــتائج التى تعقب غالبا وفاة مؤسس أحد الانظمة : وشغل محله كرئيس للمجتمع فى الحـــال رجال وضع فيهم ثقته عدة سنين وكانوا على معرفة تامة بآرائه . فأطلق لفظ « الآثار » حقبة لا على أعمال النبى وحده ، بل على أعمال خلفائه الاولين أيضـــا . وفى موطأ مالك ، وهو أول مجموعة من الاحاديث لدينا ، بعض التساهل بهذا الصدد .

وتتمثل بعض الخصائص الناتجة من منهج التأليف فى المجلد الموجود من تاريخ الـــبلاذرى ، ولعـــلها كانت ظاهرة فى المجموعات القديمة التى يذكرها . وإحدى السمات التى تشترك فيها مع كتب الحديث هى « التكرار » : فترد القصة نفسها أكـــثر مـــن مرة على الصفحة الواحدة أو فى أجزاء متفرقة من الكتاب بدون أى اخـــتلاف أو مـــع خلاف طفيف ؛ والسبب أن المؤلف أخذها عن أكثر من شيخ واحـــد . وفى مجموعات الحديث سبب لذلك ؛ إذ تعد ألفاظ النبى كالوحى ، فمن الاهميـــة بمكـــان كـــبير تـــأكيد الصورة الصحيحة التى قيلت عليها إن أمكن : فالـــروايات المختلفة تشبه الطاقات المستقلة تتجمع جميعا لتقوية الحبل . أضف إلى ذلك أن الاحاديث أساس التشريع ؛ فهى تصور المثال الذى قرر النبى ما عرض له من حالات على هداه ؛ وهى تورد أحكاما مهمة على مسائل من العقيدة . ولذلك مـــن الطـــبيعى والملائـــم أن يتكرر ذكر الحديث الواحد فى مجموعة مثل مجموعة الـــبخارى تحـــت عناوين أو مواد مختلفة من الفقه . ولكن لا ينطبق أى سبب من

Marfat.com

هذين على أقوال الخلفاء الامويين مثلا وأعمالهم ، أو الاشخاص الذين لا يعتدّ بهم والخطـــة الاقـــل إسآما ، والتى اتبعها بعض المؤرخين بعد، هي ذكر الرواة فىصدر الخـــــبر، وإذا لـــزم الامر ، يشار إلى وجود بعض الخلافات الصغيرة بينهم ، على الرغم من اتفاقهم على السياق الرئيسى .

أضف إلى ذلك أننا نجد نتيجة عجز الذاكرة الذى يؤثر فى الاخبار فى معظم الاقطـــار . وجديـــر بالملاحظة الاقوال التى تنسب إلى غير قائليها ، بسبب تشابه الاسمـــاء أحيانا ، وبسبب الخلط بين الاشخاص الذين تربط بينهم رابطة ما أحيانا أُخرى . فقد كان معاوية وعبد الملك أبرز خلفاء بنى أمية ، وكانت وجوه الشبه فى أخلاقهمـــا غير قليلة ، ولذلك ينسب الخبر الواحد لكليهما . وعانت الاعداد ، ذات الاهميـــة الكبيرة فى المدونات التاريخية ، كثيرا وبشكل خطير من السهولة التى تســـتبدل بهـــا الذاكـــرة الواحد بالآخر . فيقول البلاذرى فى ذكره عدد الملتفين حـــول الحجاج حين واجه ثورة ابن جرود ، إن بعضهم يقول ٦٠٠٠ ، وآخرون يقولون ١٦٠٠ !

ومـــن الشـــاق أن نحدد مدى الكذب الاختيارى والمتعمد الذى تسرب إلى الاحـــاديث فى تلك الحقبة ، وليس أمام الحكم الشخصى ما يهتدى به . فهذا هو مـــؤرخ بغدادى ، هو ابن أبى طاهر ، يورد خطبة فاطمة بنت النبى ، تعترض على حـــرمان أبى بكر إياها ميراثها : ويقول إن صحتها موضع نزاع : ولكن هذا النقد يـــرجع فى رأيه إلى الهوى ، الرغبة فى الحط من شأن آل بيت النبى . وقد نقول من ناحيـــة أخـــرى إن مـــثل هذا الموضوع أتاح فرصة طيبة لتمرين القدرة الخطابية .

ويظهر من نقد الحديث الذى تطور إلى علم منتظم فى زمن مبكر ، ونضج فى القرن الثالث ، حين وضعت المجموعات المعتمدة ، أن الاحاديث كانت توضع على نطاق واســـع . واختـــلفت أحوال جامعى الحديث فى الشدة : أما ما اتفقوا عليه فوجود

Marfat.com

مقاديـــر كبيرة من الاحاديث موضوعة . وقد أدى الشغف بزيادة المعرفة عن النبى وأبطـــال صدر الإسلام ، كما نعرف ، إلى كثرة العمل والجهد بين المسلمين عنهما فى أيـــة حالة مشابهة : ودراسة أحاديث النبى هى المسئول الاول عن تقدم الجغرافية والتراجم وسببه ؛ وإذ كانت طريقة اختبار صحة أحد الاحاديث هى تقدير جدارة راوته بالثقة ، كان مما لا يستغنى عنه معرفة أكبر قدر ممكن عن حياتهم : وكان من الضـــرورى معرفة متى وأين ولدوا ؟ وجعل ذلك الجغرافية والتاريخ أمرا ضروريا. وقوّى ذلك المبدأ الذاهب إلى أن أقوال النبى وأعماله مصدر التشريع : ويبدو أن دوافـــع الوضـــع والكـــذب فى هذه الاحاديث وفيما قد نسميه التاريخ الدنيوى متكافئة. قد نصدق أن المسلمين كانوا لا يجرءون على وضع شىء ما متصل بالنبى، إذ يقـــول حديث مشهور إن ذلك العمل على درجة كبيرة من الإثم . أما الكذب على يزيد بن معاوية أو عبد الملك فأقل جرما كثيرا . ومن جانب آخر كانت قيمة أقوال النبى وأعماله غاية فى العظمة ، ولذلك وُجد الدافع إلى وضعها فى هذه الحالة ولم يكن دائما دافعا لا يستحق الثقة ، ولا ينفرد الحديث به . ويحتاج التمييز بين ما حدث فعلا وما لا بد أنه حدث الوصول إلى حالة اتزان فكرى لم يبلغها حتى أيامنا إلا قليـــلون . وكـــان هؤلاء الذين شكّلوا أخبار تلك الحوادث التى كان لها أعظم النتائج فى التاريخ الإسلامى ، بعض التشكيل أميل إلى أن يوضعوا فى مركز جعلهم يـــتخذون رايـــا خاصا فيما قد حدث :وجعُلت الاخبار بحيث توافق ذلك الرأى . ونســـتطيع أن نـــرى آثار ذلك حتى فى التاريخ المتأخر . ونمثل لذلك بأخبار مقتل المقـــتدر الـــتى رواها كل من مسكوية وعريب . إذ يقول مسكويه إن المقتدر كان جـــبانا لا أمـــل له : وبالرغم من دعوته مرارا للظهور امام قواته فى الميدان ، كان يقـــدم الاعتذار تلو الاعتذار ، إلى أن أرغم على ذلك : أما عريب فيقول إنه تقدم

Marfat.com

بشـــجاعة . ويـــتفق الاثنان على أنه لقى حتفه فى تلك المناسبة . وربما كان عزيب يفكر كيف يجب أن يتصرف الخليفة ، على حين يتبع مسكويه رواية صحيحة .

وبـــرغم ذلـــك ، تتبعنا الآن العملية التى صارت الروايات بواسطتها أخيرا تاريخيـــة . فقد استدعى كثيرون شهود العيان للحوادث المهمة ليصفوها : وجعلهم الاصـــطلاح يـــتخذون بعد مدة أسلوبا ثابتا فى تعبيرهم ، صار حديثا. ونجد هذه العمـــلية على الاقل فى القرن الرابع : فالرجل الذى يريد الحصول على معلومات قـــيمة وعلى استعداد لجلبها يتخذ صورة خاصة : ويرويها المستمعون المختلفون ، مع خلافات غير مهمة عادة ، ومع خلافات مهمة أحيانا . وأدخلت هذه الاحاديث فى المجموعـــات المســـتمرة مع استمرار احتفاظها بذاتيتها : ولما ظهرت الحاجة إلى الاختصار أسقط « الاسناد » وصارت تاريخا . ويجعل المؤرخون العرب ، كما قد رأيـــنا ، تتبع مصادرهم أيسر مما عند مؤرخى الامم الاخرى إذ أن تاريخهم تطور مـــن الاحاديث : ولم يبدأ بالتاريخ المستمر أو الرسمى ، وإنما بأخبار شهود العيان . وامتلاك المسلمين لهذا النظام جعل المسلمين يمتازون ميزة واضحة فى خصوماتهم مع اليهـــود والمســـيحيين ، الذين يظهرون بمظهر الاكثر تسليما بمعلوماتهم . فليست لديهـــم سلاســـل رواة لتاريخهم الدينى أو الدنيوى : حيث ، لا يصف المؤرخون الإغريق مثلا تجاربهم الخاصة ، وقلما يتيحون لنا الفرصة لاختيار مصدر المعلومات الـــتى يقدمونها : وعلينا أن ندعى أنهم حصلوا عليها من أناس كانوا عارفين بها . وأخيرا اضطر اليهود إلى تأليف « إسناد » لتوراتهم .

Marfat.com

الفصل الرابع

الشعر أداة للتاريخ

إذا كـــان الـــتاريخ إلى حد ما تفسيرا للقرآن ، فلدينا من الاسباب ما يجعلنا نذهب إلى أنه تعليق على الشعر إلى حد ما أيضا . ونقابل مرارا النظرية القائلة بأن الشعر هو المنهج القبلى لتدوين التاريخ ، وينشد قدماء المؤرخين الاشعار الشاهدة على كبار الحوادث ؛ وكان ذلك أمرا يسيرا عليهم لأن التنظيم العسكرى كان لا يزال قبليا ، وكانت الافراح والآلام التى يتغنون بها خاصة بالقبيلة .

ونجد مثالا من أقدم الامثلة لهذه الصورة من التأليف التاريخى فى سِفْر القضاة، حيـــث يبدو أن أغنية ديبوره كانت النواة التاريخية التى تعلقت بها الاخبار المنثورة تعـــليقا عليها ؛ ومن المصادر التى أخذت منهـــا الاجزاء التاريخية من العهد القديم أخـــبارها القديمة كتاب يسمى وغَنَّى * ، وهو مجموعة من القصائد القبلية التى تخلد الانتصـــارات والهـــزائم . ونقرأ بالمثل عن قصائد سجلت فيها ألوان الكفاح بين الأوس والخزرج قبـــل مجىء النبى ، الذى حرم إنشادها ، إذ كان يرمى إلى تدعيم الأخوة بين القبائل . وواضح أنه لم تتح فرصة البقاء إلا للقصائد ذات الميزة الفائقة أو الـــتى تسجل نصرا حاسما أو هزيمة من هذا اللون من الشعر ؛ وقد وجد العلماء الفرنســـيون الذيـــن جمعوا قصائد الافريقيين الشماليين أنها جميعا حديثة العهد ، إذ غطـــت الأزمـــات الحديثة على الازمات القديمة التى أثارت الفورات الانفعالية ، فأعقب ذلك حلول القصائد الحديثة محل المنظومات القديمة . ومن الطبيعى أن هذا

---

* مؤكد أن ذلك هو المعنى الحق لكلمة « يشـــــار » .

Marfat.com

المصـــدر للـــتاريخ الإسلامى القديم لفت أنظار النحاة والمشتغلين بالآثار القديمة ، الذين غالبا ما تروى عنهم الاشعار . ولم يكن اهتمامهم اهتمام المؤرخ ، الذى همه الاول مـــا يعمله الناس ، وإنما اهتمام الناقد الادبى ، الذى يعنى أولا بما يقولـــون ، أو اهتمام الأثرى ، الشغوف بمعرفة عاداتهم ومعتقداتهم .

وهـــناك بعض المشاكل البارزة التى تصاحب هذه الطريقة فى تذكر الأشياء . فمـــن الممكـــن طـــبعا أن يذهب المحاربون الابطال مثل عبد الله بن الزبير المطالب بالخلافـــة ، إلى القتال وهم ينشدون الاشعار التى نظموها ، وأن يتذكر الاشخاص الذيـــن يواجهـــون الموت فى صفه هذه الابيات ، وأن يخلصوا من المعمعة سالمين ، فيحـــتفظوا بالاشعار ويروووها . وممكن من جهة أخرى أن يتصور المرء ما قد يقوله بطل فى هذه المناسبة ويصوغه شعرا ، ثم ينسبه إليه لمنح الرواية معالم الحياة . ونسبة الأقوال كذبا إلى الاشخاص الموصوفة أعمالهم أمر مألوف بحيث لا يحتاج إلى مثال . ونجـــد فى مجموعات الرسائل النموذجية رسائل يقال إنها كتبت فى مناسبات مهمة ، كاسترجاع بيت المقدس من الفرنجة ، وغالبا ماءيتعذر التمييز بينها وبين ما قد كتب فعـــلا حينـــئذ . ومن المعروف فى حالة سيرة ابن إسحاق أن القصائد التى يزين بها الأخـــبار ، ويفـــترض أنها قيلت بُعيد الاحداث المهمة فى حياة النبى أو على صلة مباشرة بها ، وبعضها قصائد طويلة ، كُتبت إجابة لطلب ابن إسحاق، ولذلك يحق الشـــك فى الحـــالات الاخرى : ولكن حيث تكون الصحة مؤكدة ، كما فى حالة القصـــائد الـــتى نظمها الشعراء العباسيون يمجدون أعمال ممدوحيهم ، نجد طبيعة القصـــائد تجعـــلها لا تصلح لنقل المعلومات المفصّلة أو الدقيقة . فهى تحفظ بعض أعلام المواضع والاشخاص ، ولكن من الطبيعى ألا صلة بينها وبين التواريخ وفنون القتال .

Marfat.com

ومن المعروف أن الاخبار تكتسب حياة إذا ظهر الاشخاص فيها يتكلمون ، ولا يقتصر دورهم على القيام بالأعمال وحدها ، وقد روعى ذلك طويلا ؛ ولكن هذه العملية ، إن لم تُحدد تحديدا صارما ، أحالت التاريخ رواية . والمؤرخ الذى اشتط فى هذا الامر هو الدينورى إذ يروى فى سرده الحوادث التى أدت إلى موقعة صفين محادثة بين معاوية والشخص الذى وفد عليه بأخبار مقتل عثمان ، ويحض معاوية على طلب الخلافة لنفسه ، وينشد بعض الابيات ، فيسر معاوية بالاقتراح ، ويرتجل شعرا : قصيدة طويلة . ثم تصله رسالة من على ، يدعوه فيها إلى البيعة له ، وتُروى الرسالة كاملة . ويستشير معاوية أقرباءه ، فينصحه أخوه عتبة بطلب مساعدة عمرو بن العاص ، فيبعث معاوية رسالة إلى عمرو ، وتُدوَّن هذه الرسالة التى تستدعى الاخير . ويصل عمرو ، ويستطيع المؤلف أن يورد الحديث بين الاثنين، إذ يذكر معاوية ثلاث مشكلات وقعت له ، آخرها طلب على . فيطرح عمرو الأولين لسهولة التخلص منهما ، ويشير إلى مشقة مقاومة على ، ويسأل ما هى مكافأته إن هو أعان معاوية . فيطلب إليه الأخير أن يذكر شروطه ، فيطلب مصر ، فيسأله معاوية أن يمهله للتفكير ، ثم نستمع إلى حديث بينه وبين عتبة ، الذى ينصحه بقبول شروط عمرو . ويطلب معاوية إلى أخيه أن يقيم ليلته عنده ، فيسمعه ينشد بعض الاشعار ، يحضه فيها بالمخاطرة ، فيجعله ذلك يستقر على رأى ما . حينئذ يقترح عمرو الخطوة الأولى ، وتُبْعَث إلى على رسالة شعرية ، فيأمر على بالاجابة عليه شعرا .

ويثير ذلك العمل الذى يصبغ التاريخ بصبغة روائية بعض الشك فى أية حالة، وخاصة عندما لا يذكر المؤلف (كالدينورى) رواته . إذ يجب أن يكون راوى المحادثات السرية ، إن كان من الممكن حفظها إطلاقا، أحد المشتركين فيها ، وحيثما لا ينسب الحديث إلى أحد الجانبين المشتركين فيه ، فلا إمكانية كبيرة

Marfat.com

لروايـــته . أضـــف إلى ذلك أننا نجد الرسائل التى يقول ذلك المؤلف إنها تبودلت مختلفة تماما عما يرويه مؤرخ آخر ، هو ابن قتيبة ، حقا إن المعنى واحد إلى حد ما ، كما قد نتوقع ، لأن ذلك ما تؤيده الوقائع . من الطبيعى أننا نستطيع أن نتخيل أن يـــنظم معاوية وأخوه والباقون الشعر فى هذه المناسبات ، ولكن المحتمل أنهم كانوا مشـــغولين بأمور أخرى . ومن الواضح أن ما نجده فى هذه المحادثات ، التى يضيف إليهـــا المؤرخـــون الآخرون آخرين ، هو حل المشاكل التى تقع . ما الذى دفـــع معاويـــة إلى مقاومـــة على ، وأن يستدعى عمرا ؟ كيف استجاب عمرو للدعوة ؟ هذه الاسئلة وأمثالها تعرض حين يرغب المؤرخ فى الغوص وراء دوافع الاعمال التى يســـجلها. فالمـــنهج المستَخدَم هو التظاهر بمعرفة كل شىء ، الذى يدعيه مؤلف الـــروايات بالضرورة ، فلا أسرار تخفى عليه . وذكر الشعر حيلة لتزيين السرد ، يســـتخدمها كتاب الروايات من العرب استخداما منتظما. فالمتحدثون فى المقامات يترلقون إلى الشعر عندما تتاح لهم الفرصة لذلك .

رأينا أطرافا من الضعف الملازم لاستخدام القصائد سجلات للحوادث . بل لا يخـــلو منها أمثال قصائد مـــكـــُولى Macaulay عن روما القديمة ، لو كان لديـــنا ما يماثلها متناولا أحداث بلاد العرب الجاهلية أو حوادث القرن الأول من الإسلام ، وان تمتعت بالاستمرار التاريخى وعدم التقطع وببعض التفاصيل الجغرافية وغير الجغرافية مما يؤلف سجلا واضحا للأحداث . ولكن ليس من اليسير أن نعثر فى شـــعر العرب القديم على ما تمكن مقارنته بتلك القصائد ، بل بأغنية ديبوراه . فمـــن المعـــروف أن النظم العربى غير ملائم للاستمرار والاتصال : فالبيت وحدة مستقلة ، وواهن الصلة عادة بما يسبقه أو يعقبه : ولا يربط بينها المعنى بل الاتفاق فى القافيـــة والـــوزن . ومن ثم فالشعر الذى يعالج التاريخ القبلى وغيره فى أحواله العاديـــة تلميحى أكثر منه تاريخى أو قصصى ، وإذا ما وصلت إلينا القصيدة التى

Marfat.com

تعـــالج تلك الاحداث كاملة ، وجدناها تخلط الاحداث التاريخية بأمور أخرى غير ذات صـــلة بها . ولذلك نخرج بقليل من الأمور التاريخية ، من المعلقات ، وخاصة معلقة زهير ، التى تمدح بعض الرجال لسعيهم فى إقرار السلم بين قبيلتين متحاربتين وتحمـــلهم المغـــارم فى سبيل ذلك . ولكن وصف معلقة زهير بأنها قصيدة قاصـــّة ballad يشوه صورتها تشويها بعيدا . فهى تعليمية اكثر منها قصصية .

ولا يختلف عن هذا الطابع الاشعار التاريخية التى تؤلف « ديوان العرب » . وتمدنـــا بأمثـــلة ذلـــك حماسة أبى تمام . فهى فى كثير من الاحوال قطع مختارة من قصائد، لأنها تعالج موضوعات خاصة . وفى العـــادة تترجم لصاحبها ، وتحتاج إلى تعـــليق تاريخى ليوضحها . وكان على الاشعار أن تعيش معتمدة على مزاياها ، وفى تـــلك الحالـــة يمدها ثقات الرواة بالمعلومات المفسرة . وغالبا ما ثار الشك الخطير حـــول المناسبة التى قيلت فيها الاشعار، بل اختلف العلماء فى مؤلف بعض الابيات المشـــهورة . أضف إلى ذلك وجود حالات بقيت فيها الحادثة فى ذاكرة الرجال أو وصـــلت إلى علمهم بطريقة ما ، فنُظمت الابيات لتلائمها . وأحيانا يغرينا الموقف عـــلى الابتســـام من مسلك المؤرخين والمنقبين الذى لا تمحيص فيه ، إذ يذكرون الاشعار التى لا يمكن أن تصدر ممن تنسب إليه .

ونجـــد فى دواوين الشعراء العباسيين ما يقترب من القصيدة القاصّة ballad أكثر من اقترابه من التلميحات العارضة . إذ ترمى أكثر من قصيدة من طوال أبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، والشريف الرضى ، والتعاويذى ، وغيرهم إلى الاشادة بـــبعض الاحداث أو المشاهد التاريخية. ويصير لما تعطينا هذه القصائد من معلومات خطورتها، حين يكون الديوان مرتبا حسب زمن القصائد ، وتمدنا عناوينها بتواريخ مناسباتها . وفى بعض الاحوال تسجل القصائد أحداثا ذات أهمية غير قليلة لا تذكر عـــنها كتب التاريخ شيئا ، فهذا هو البحترى يصف موقعة بحرية يبدو أن المؤرخين

Marfat.com

المعاصـــرين له لم يتنبهوا لها . ويصف فى إطناب قصورا بناها خلفـــــاء عصره ، ولا تذكرها كتب التاريخ .

{ أرجوزة عبد الله بن المعتز }

ووجدت فى القرن الثالث الإسلامى فكرة الاستعاضة عن القصيدة القاصة بما هـــو أشـــبه بالحوليـــة chronicle المنظومة . فقد أفرد عبد الله بن المعتز، لحياة المعتضد وعهده ، قصيدة سماها « كتاب سيرة الإمام » . بل يذكر تاريخ وفاته فى البيت :

ومات بعد مئتين قد خلت فى عام تسع وثمانين مضت

والشاعر أديب مشهور ، يكثر الاقتباس من أقواله الادبية المتعددة الالوان ، وله ديوان جيد . وقد فضله على المقتدر الطفل ونصبه على الخلافة جماعة منها على ابـــن عيسى ، الرجلُ الفاضل ، الذى ذهب إلى أن الواجب على العقلاء تنصيب رجـــل ذى خـــبرة بالأمور، كان ذلك بعد وفاة الخليفة المكتفى ، عندما بدا كأنما تنصـــيب الخليفة فى يد الوزير . ولكن الجند المخلصين لذكرى المعتضد، عارضوا ذلك التعيين ، فكانت خلافة عبد الله قصيرة الاجل .

وتختـــلف القصيدة التى تبلغ ٣٦٣ بيتا عن القصائد القاصة ، إذ إنها وصف متصل الحلقات لغزوات المعتضد ، وتستهل بعد البسملة بقوله : إن النبى :

مضى وأبقى لبنى العباس ميراث ملك ثابت الآساس
برغم كل حاسد يبغيـــه يهدمه كأنه يبنيـــــــه

يلى ذلك العنوان :

Marfat.com

هذا كتاب سيرة الإمـــــام مهذّبا من جوهر الكـــلام
أعنى أبا العباس خير الخلق للملك قول عالم بالخـــق
ويستطرد الشاعر فى القول :
قام بأمر الملك لما ضاعـــا وكان نهبا فى الورى مشاعا
مذللا ليست له مهابـــــه يخاف إن طنت به ذبابـــه
وكل يوم ملك مقتـــــول أو خائف مروع ذليـــــل
أو خالع للعقد كيـــما يغنى وذاك أدنى للـــردى وأدنى

وتضـــم هذه الفقرة وصفا صحيحا لفترة الفوضى التى أعقبت قتل المتوكل واســـتمرت إلى أن أعتلى المعتمد الخلافة ، وعلى الرغم من الاغراق فى المبالغة فى عبارة « كل يوم » ، نجدها على لسان أحد المتحدثين فى تاريخ الطبرى . ثم يصف شغب الجند :

ويطلبون كل يوم رزقـــا يرونه دينا لهم وحقـــــا
ثم يُعلن :
وكان قد مزق ثوب الملك طوائف إيمانهم كالشـــرك
فمنهم فرعون مصر الثانى عاصى الاله طائع الشيطان
يريد ابن طولون :
والعلوى قائد الفســـاق وبائع الاحرار فى الاسواق

ثم يعدد آخرين ، ويقول إنهم جاروا على الرعيـــة :

[والدلفى العود والصفار] ومنهم إسحاق البيطـــار
أعلم خلق الله بالمـــاخور وعـــدد مثلث وزيـــر
ومنهم عيسى بن شيخ وابنه كلاهما لص حلال لعنـــه

Marfat.com

يدعون للإمام كل جمعـــه ولا يردون إليه قطعـــه
ويأخذون مـــالهم صراحا ويخضبون منهم السلاحـا
ولم يزل ذلك دأب النـــاس حتى أغيثوا بأبى العبـــاس
كان لنـــا كأردشير فارس إذجدّ فى تجديد ملك دارس

وكـــان المصدر الرئيسى لمتاعبه فتنة الزنج ، الذين سيطروا على البصرة عدة سنوات وهزموا جيوش الخلافة المرة بعد المرة . ويعزو الشاعر فضل القضاء عليهم إلى المعتضـــد ، الذى عاون أباه الموفق فى هذه المهمة الشاقة ولا شك. واسم الثائر الحسن . ويطلق عليه الطبرى عادة اسم « القبيح » ؛ ومن الواضح أن فتنته ذات جـــانب دينى إذ ادعى قائدها أنه من أبناء على ، وقال فى بيانه الذى يرويه الطبرى إنه لا يقاتل من أجل دنيا يصيبها. ويؤيد وصف ابن المعتز له أقوال الطبرى :

والبائع الاحرار فى الاسواق وصاحب الفجّار والمـــرّاق
وقاتل الشيوخ والاطفـــال وناهب الارواح والاموال
ومالك القصور والمســـاجد ورأس كل بدعة وقائـــد
إمام كل رافضى كافـــــر من مظهر مقالة وسائـــر
يلعن أصحاب النبى المهتدى إلا قليلا عصبة لم تـــزدد
فكفر الناس سواهم عنـــده فلعنة الله عليـــه وحده
ما زال حينا يخدع السودانا ويدعى الباطل والبهتانـــا
ويدخلون عاجـــلا بغداذا [فلم يرالكذاب ذا ولا ذا]
وقـــال : إنى أعلم الغيوبـــا [لم ير فيها عالما مجيبـــا]
فخرب الأهـــواز والأُبُلـّــه وواسطا قد حل فيه حلـــه
وترك البصرة من رمـــــاد سوداء لا توقن بالمعيـــــاد

Marfat.com

وأذاقها ما لم يسمع بمثله من ألوان العذاب . ويعدد الشاعر قواد بغداد الذين هزمهم ذلك المدعى :

ورامه موسى فمـــا أطاقـــه ومجّه من فيه حين ذاقـــــه
موسى بن بغـــــــا.
وقد سقى مفلح كأس القتل وشكّه بمخصف ذى نصل
وترك الاتراك بعد فقـــــده كذى يد قد قطعت من زنده
وقتـــــل ابن جعفر منصورا وكان قبل قتله كـــــبيرا
من بعد مـــا صابر أى صبر وأرجف النـــاس له بالنصر
والشيخ قد غرّقـــــه نصيرا وقال: حسبى فَقْد هذا خيرا
أعنى غلاما لسعيد الأعورا قد كان فى الحروب موتا أحمرا
حتى إذا مـــا أسخط الإلهَ وبلغت فتنتـــه مداهـــــا
أعزى به الله هزبرا ضيغمـــا إذا رأى أقرانـــه تقدمـــــا
فلم يزل عاما وعاما ثانيـــا وثالثا يكابد الدواهيـــــا
مجاهـــــدا برأيه ونصـــله ومـــــاله وقوله وفعـــــله

ثم يبين الشاعر أن المعتضد فاز بالنصر النهائى بوسائل أخرى غير مجرد الشجاعة فى الحرب :

ويقبل المستأمن المنيـــــا ويغفر الزلات والذنوبـــــا
ولا تراه ناقضا لعهـــــــده ولا يشوب باطـــلا بجده
ثم سما من بعـــــد للشامَيْن فجرعوا من كأسه الأمرَّين
وعرفوا عند اللقـــــاء صبره وشده يوم الوغى وكـــرّه
سل عنه قيلا صرعوا بشيزرا [وآخرا وآخرا وآخـــرا]
جاء من الشام إلى الفسطاط [يحث عدو الخيل بالسياط]

Marfat.com

وحارب الصفار بعد الزنج فطار إلا أنه فى سـرج

ثم يـتطرد إلى انتصـارات أقل شأنا – خلعه الوزير أبا الصقر إسماعيل بن بلـبل، ذا الأهميـة الكبيرة ، وإن لم يذكره الطبرى إلا عرضا . وقد مدحه وهجاه الشـاعر المعاصر ابن الرومى ، وخص بالذكر ادعاءه الانتساب إلى بنى شيبان من العرب . ويذكر الشاعر أنه كان خبيرا بابتزاز الأموال :

يأخذ من هذا الشقى ضيعته وذا يريد ماله وحرمتـه
وويل من مات أبوه موسرا أليس هذا محكما مشـهرا
وطال فى دار البلاء سجنـه وقال: من يدرى بأنك ابنه؟
وتاجر ذى جوهر ومـال كان من الله بأحسن حـال
قيل له : عندك للسـلطان ودائع غالية الاثمـان
فقال: لا والله ما عندى له صغيرة من ذا ولا جليـله
فدخنوه بدُخـان التبن وأوقروه بثقـال اللبن
ثم بنى مـن الغصوب دارا فأصبحت موحشة قفـارا
مامات حتى انتهبت وهويرى وبلغوا فى هدمها إلى الثرى
ثم إذا ما قام عن غذائـه وفرغت قهوته بمـائه
تناول الريشة والطنبـوزا فأضحك الصغير والكبيرا
ومدح أفلاطون والفلاسـفه وساعدته فى هواه طائفـه
وذكر السعود والنحوسـا والجوهر المعقول والمحسوسا
وذرع طول الارض والافلاك وكم بلاد الصين والاتراك
واستثقلوا من قـام للصلاة فكيف من طول فى القراة
فلم يزل ذاك دأب الجاهـل حتى رمى بسهم حتف قاتل

Marfat.com

وذكـــر أن وفـــاة إسماعيل أعقبها اعتلاء المعتضد الخلافة ، فأنفذت مصر إليه مالهـــا، وسارع الصغار إليه بالاذعان . ثم فحص المعتضد قوائم الجند وطرح جميع العاجـــزين : وبعد هذا الفحص سار إلى الموصل ، وقضى على السرقة والقرصنة. ويقول : وكان فى دجلة ألف ماخر ، يجبون كل مقبل ومدبر . ويذكر أسماء زعماء اللصـــوص المهزومين ، وأهمهم حمدان ، الذى هدمت قلعته : ويضطلع أبناء حمدان هـــذا بنصـــيب كـــبير فى تـــاريخ القرن التالى . كذلك هارون ، خليفة الأكراد والاعراب ، وواضح أنه كان من الخوارج ، إذ يلعن عثمان ويبرأ من على .

ثم يذكـــر الشاعر بين خدمات المعتضد تأخيره النيروز ، أى إخضاعه الخراج للـــتقويم الشمســـى : إذ أدت جباية الخراج وفقا للتقويم القمرى ، كما ينتظر ، ويظهر من المراجع الاخرى ، إلى صعوبات عظيمة ، إذ استعمل الجباة شتى صنوف الـــتعذيب لارغـــام الناس على دفعها : ولم يكن من المستطاع أن يتم ذلك إلا عن طريق الاقتراض بفوائد باهظة . ولكن الشاعر يؤكد لنا أن كل هذا قد أُبطل .

ثم يستطرد إلى إعجابه بمبانى هذا الخليفة ، التى لمن يبن بان من الخلفاء مثلها .

وكان فى أحدها شجرة صناعية :

وما رأى الراءون مثل الشجره ذات غصون مورقات مثمره
ولم تكن غرسا ترابه الثـــراء ولم تكن من شجر يسقى بماء
لكنها تخبر عـــن حكـــيم موفق مجـــرب عـــــليم
مفكر من قبـــل أن يقـــولا ويحسن التفهيم والتمثيـــلا

مـــثل هـــذه الاعمال (وبيعدد كثيرا غيرها) شاهدة على قوة الإسلام .

ثم يعلـــــن :

Marfat.com

ومعظم الفتوح فيه آمـــــد معقل كل فاجر معانـــــد
لم تر قط مثلهـــا مدينـــه منيعة بسعدها حصينـــه

ويذكـــر الشاعر أن المعتضد استولى عليها بعد حصار طويل . وكانت مقر عيسى بن شيخ ، المذكور قبلا .

ثم أتى الرقـــة ينـــوى أمرا فلم يزل فيها مقيما شـــهرا
وبادرت مصر إلى رضـــائه تنتظر الاصعاق من سمائـــه
وحملت أموالهـــا إليـــه وخافت البطشة من يديـــه

وعـــند عودته رحب به ثلاثة ، هم الامير والوزير وأبو الحسين القاســـــــم :

ثلاثـــة للملك كالأثـــافى قوادم ليست من الخـــوافى

ويمدح الخليفة لبراعته فى اختيار أمثال هؤلاء المساعدين .

ويســـتطرد إلى القـــول بأن المعتضد رأى النبى فى المنام ، بعد عشر سنين من حكمـــه ، فشكره لخدماته ، فأعقب ذلك القبض على إسماعيل الصفار الثائر الذى حمل إلى بغداد فى القيود : وهزيمة ابن زيد الثائر فى طبرستان .

ثم يذكر انتصارات أخرى متنوعة ، بعضها مثير للحيرة والغموض : ثم كلمة عن القرامطة ، ذوى الآجام ، الذين سنوا شرائع الفساد ، وأُهلكوا إهلاك عاد — وتلك مبالغة لأن القرامطة كانوا مصدر قلاقل خطيرة فى العهود التالية . وما يذكره ابن المعتز عنهم له أهميتـــــه :

كانوا يقولون : إذا قتلنـــا صبرا على ملتنا رجعنـــا
من بعد أيام إلى أهلينـــــا فقبح الرحمن هذا الدينـــا
يجاهدون عن إمـــــام مختفى يقرب الوعـــد لهم ولا يفى

Marfat.com

ثم هجوم على أهل الكوفة المفترض أنهم شجعوا الحسين على الثورة ثم تخلوا عنه : ويشبه الدموع التى سفحوها عليه بدموع التماسيح — ولا بد أن ذلك القول مثال مبكر من المثل . ويشير أيضا إلى كثرة الاديان والمذاهب فى هذه المدينة ، الكثرة التى نسمع عنها فى بعض الاقوال الاخرى . ولم يزل أهلها فى حيرة من دينهم : فلا هم يهود ولا نصارى : والمسلمون منهم براء . بل هم رافضة أشتات . يجحد بعضهم الرسول ، ويدعى أن جبريل غلط فى فعله ، أى أعطى الرسالة التى كان على مقصودا بها إلى محمد . ويقول بعضهم إن عليا ربنا : وحسبنا ذلك دينا . ومنهم الثوار والعصاة ، الذين يجيبون كل دعوة إلى بيعة جديدة ... ونبيهم ابن أبى القوس ، الذى خفف عنهم الصلوات ، وقال : ناب بعضها عن بعض .

ولو قورنت هذه القصيدة بتاريخ الطبرى وجد أنها تقاربه فى الصبغة التعليمية: إذ يؤرخ ابن المعتز الاحداث فى حالة أو اثنتين بالشهر ، ولكن ليست السنة التى يشير إليها واضحة . ولقد وفق فى اختياره الرجز وزنا لهذه القصيدة المؤرخة : فتجنب بذلك الصعوبة الكبيرة فى التزام قافية واحدة فى أبيات تبلغ المئات . وعلى الرغم من اصطباغ بعض الابيات بالصبغة النثرية بطبيعتها ، لازال كثير منها يتمتع بصفة اللغة المذكورة فى البداية . ولذلك فهى أقرب إلى التاريخ كثيرا منها إلى القصائد القاصة . ولكنها تشارك هذه القصائد فى التأثر بالهوى الذى لاحظناه : إذ لا نستطيع أن ننسب إلى المعتضد محقين كل ما يعزى إليه فيها ، ولا يخطر فى خلد الشاعر أن الأمر نفسه قد يحدث لأعدائه . ومهما كان الأمر ، فإننا لو لم نحصل على أى تاريخ لهذه الحقبة ، لوجدنا فى ابن المعتز عوضا حسنا عن واحد من كتب التاريخ .

Marfat.com

{ رائية أبي فراس الحمدانى }

ونجـــد مـــثالا آخر للقصيدة المؤرخة فى قصيدة أبي فراس الحمدانى ، ابن عم ســـيف الدولـــة المشهور ، الذى أُسر فى إحدى الحروب الأخيرة مع البيزنطيين ، وتوســـل سدى إلى ابن عمه ليسعى فى إطلاق سراحه . والقصيدة التى يروى فيها مجموعـــة كبيرة من الاحداث من اللون القديم المعروف باسم المفاخرة ، التى يشيد فيها الشاعر بنفسه أو قبيلته . وبعد مقدمة غزلية فيها شيء من الطول يفرد الشاعر ما يزيد على ١٥٠ بيتا لتاريخ الحمدانيين : وهى من بحر الطويل ، قافية الراء .

ويســـتهل هـــذا الجزء بمدح سيف الدولة ، الذى أغنته أمجاده ، يقول ، عن تذكـــر الامجاد القديمة لاسرته . ولكنه يسرد تاريخها القديم ، مبتدئا بجد لم يُسمِّه ، يقـــول إنه جمع شمل بنى تغلب وقد أحدق بهم خطر التفرق ، وتحمَّل ديات مئة قتيل ذُبحـــوا فى إحـــدى المعارك القبلية . وأضاف فرد آخر من القبيلة الامام وجيشه . وحكم جد آخر الديار وعال الرعية فى المحل الذى استمر ثلاثة أعوام .

أسا داءَ ثغر كان أعيا دواؤه ... وفى قلب ملك الروم داءٌ مُخامـــر

وبـــنى قلعة ليحمى الثغور ، واضح أنها هدمت ، ولكن الشاعر يتنبأ باعادة بنائها . ولما ألمت الازمة بالديارين (ديار بكر ومضر) أزال آثارها بكرمه . وعمه هـــو الذى أردى فاتكا والقتـــّال . وسار إلى دار الخلافة فأحرقها والجيش محاصر لها. ويختلف وصف مسكويه لهذه الأحداث أشد الاختلاف . فقد هاجم حسين بن حمـــدان ، العـــم الذى يشير إليه الشاعر ، قصر الخليفة المقتدر ، فى مطلع عهده ، ولكنه واجه من المقاومة ما جعله ينسحب ويفر إلى الموصل . ويعزو الشاعر إلى هذا الرجل مجموعة أخرى من المفاخر التى إما أخفاها المؤرخ أو أبرزها فى صورة مخالفة، مخالفـــة شـــديدة : فالانتصارات المختلفة التى يدعيها الشاعر لعمه يدعيها المؤرخ

Marfat.com

لمؤنس ، القائد العظيم فى ذلك العهد . وتلك هى الحالة فى فتح مصر ، وهزيمة السَّبْكرى ، والقبض على يوسف بن أبى الساج ، الذى يطنب المؤرخون فى روايته بعض الاطناب ، دون الاشارة كثيرا إلى الدور الذى قام به الحمدانى . يلى ذلك فى القصيدة مجموعة من الامجاد الجاهلية التى ليس من اليسير التحقق منها . ويتخلص الشاعر من هذه الامور إلى استيلاء سيف الدولة وناصر الدولة على بغداد ، ويعدل بعض العدل فى تصويره شاهدا على مساعدتهما الخليفة أيام كان لا نصير له ، وإعادته إلى مقره وتنصيبه على الخلافة ، وسياسة أمور المسلمين سياسة يشكرها الدين والإسلام . ويصور قتل ناصر الدولة لابن رائق ، الذى يبدو فى التاريخ حدثا من أحداث الخيانة الكبيرة ، فى البيت :

ولما طغى عجلُ العراق ابن رائق شفى منه لا طاغ ولا متكاثر

ومما تجدر ملاحظته أن الشاعر يحذف فى تعديده أمجاد أسرته ذلك الحدث الذى يؤثر فى قارئ تاريخ مسكويه كل التأثير – ألا وهو خيانة أبى الهيجاء للقاهر. ويخصص ختام القصيدة لمفاخر سيف الدولة، وهى من ناحية شبيهة بما يقوله المتنبى المشهور . ويذكر بين التفاصيل أن الأخشيد بما رأى ما قد أظلّه ، يريد قوة سيف الدولة فى حلب – عزم على مهادنته ، ورأى أنه ينال بالصهر ما لا ينال بالعساكر.

ولا شك أن قصيدة أبى فراس هذه أكثر شاعرية من قصيدة ابن المعتز ، ولكنها تكشف عن نقائص أسلوب القصائد القاصة بدرجة كبيرة . فالأسلوب تلميحى إلى درجة عظيمة : ولا يذكر الشاعر أسماء أجداده وأعمامه ، ولذلك لا تتضح القصيدة بدون شرح . والأعمال المشاد بها فيها كثير من المبالغة ، أو يساء إبرازها إساءة كاملة ، كما نستطيع أن نتبين من المراجع الأخرى . ومن المحقق أن

Marfat.com

سيرة سيف الدولة لم تكن مجموعة من الانتصارات المتصلة الحلقات ، ولكن لا يلقى الاهـــتمام أو لا يشار إلا إلى الانتصار . أضف إلى ذلك أن من الواضح أن الشاعر لا يعـــير الـــترتيب الـــزمنى انتباها ، ومن المحال أن تستخرج من الابيات ما يشبه الوصـــف المتسلســـل المـــترابط لاحدى حملات سيف الدولة . وواضح أن فيها إشـــارات متـــنوعة لها أهميتها ولا بد أنها تشير إلى وقائع تاريخية ، ولكنها محيرة : والمحـــتمل أن الشروح ، فى حالة عثورنا عليها ، لا تتناول إلا الجوانب اللغوية كما يصـــحف شـــــارح نسخة بيروت ابن رائق ويجعله ابن زائق، ويخبرنا أن الاخشيد «اسم رجل».

وإذا مـــا كانت القصيدة ذات قيمة متوسطة من الجانب التاريخى فإنها على شىء من الأهمية باعتبارها مثالا من أمثلة « المفاخرات » ، وهو إن كان متأخرا ، إلا أنـــه لا يشك فى صحته ، ومن نظم شاعر موهوب ومشهور . أضف إلى ذلك كونه ، باعتباره ابن عم سيف الدولة وناصر الدولة ، اللذين اضطلعا بأدوار عظيمة الاثـــر فى سياســـة العصر ، أقدر على مدحهما من شاعر البلاط العادى ، الذى تكـــون معرفـــته براعيه أقل ألفة وحرصه فى أقواله أعظم . ولكن يبدو أن معرفته بحـــوادث الجيـــل السابق له مباشرة كانت على شىء من الغموض : فواضح أنه لم يســـتطع أن يسمى أعمامه وأجداده الذين يريد الاشادة بأعمالهم . ووصفه للوقائع بل الحديث عنها ليس متحيزا حسب ، كما قد رأينا ، بل يسىء تصوير الاحداث إساءة خطيرة ، إذا ما كان لنا ان نثق بكتب التاريخ . وإذن فقصيدة أبى فراس هذه تمثل خطر استخدام الشعر القاص باعتباره تاريخـــا .

Marfat.com

{ ارجوزة ابن عبد ربه }

والمثل الثالث الذى لدينا للتاريخ المنظوم موجود فى مجموعة الكاتب الأندلسى ابن عبد ربه . وهى قصيدة تصف أعمال الخليفة عبد الرحمن الثالث ، أول من تلقب خليفة من الأمويين فى الأندلس . وهى من بحر الرجز ، كقصيدة ابن المعتز ، ولكنها تختلف عنها إذ تنقسم إلى أقسام مؤرخة : فهى إذن على نظام الحوليات . وطبيعى أن لغتها مادحة ومبالغة ، ولكنه يذكر قوائم بالاماكن التى أخضعها عبد الرحمن فى اسبانيا ، ولا يزال كثير منها يحتفظ باسمه إلى اليوم كألبيرة مثلا : ويسرد فى بعض الاحوال تفاصيل دقيقة عادلة . يقال إنه فى عام ٣٠١ هـ غزا قرمونة ، وكان ثار فيها ابن سوادة ، فسأله أن يمهله شهورا، يكون بعدها عبده المأمور . فأسعفه الامير ، وعاد بالفضل . وهاك الابيات المتعلقة بالسنة التالية :

{ سنة اثنتين وثلاث مئة }

كان بها القفول عند الجيئه من غزو إحدى وثلاث مئه
فلم يكن يدرك فى باقيها غزو ولا بعث يكون فيها

وتلخص الفقرات التالية الوقائع ، وهى على قسط حسن من الوضوح والتفصيل ، وإن لم تكن شاعرية تماما. وهاك ما جاء فى سنة ٣٠٤ هـ .

وبعدها كانت غزاة أربع فأى صنع ربنا لم يصنع
فيها يبسط الملك الاواه كلتا يديه فى سبيل الله

Marfat.com

وذاك أن يقود قـــــائدين بالنصر والتأييد ظـــاهرين
هذا إلى الثغر و ما يليـــــه على عـــدو الشرك أو ذويه
وذا إلى شم الربا من مرســيه وما مضى جرى إلى بلنسيه
فكان من وجهه للساحـــل القرشى القائـــد القنابـــل
وابن أبى عبدة نحو الشـــرك فى خير مـــا تعبيـــة وشَـــكّ
فأقبلا بكل فتح شامـــــل وكل ثكل للعـــدو ثاكـــل
وبعد هذى الغزوة الغـــراء كان افتتاح ليـــلة الحمراء
أغزى بجند نحوهـــا مولاه فى عقب هذا العـــام لا سواه
بدرا فضم جـــانبيها ضمه وعمهـــا حتى أجابت عنوه
وأسلمت صاحبهـــا مقهورا حتى أتى بدر به مأســـورا

ويـــدون تحت عام ٣٠٥ هـــ انتصارا على ثائر مسلم ، وهزيمة أيضا منى بها أبـــو العباس أحد قواد الخليفة ، وكان - يقول - أنجد الانجاد، ولكنه سار فى غير رجال حرب ، فأسلموه حين أحاط به العدو.

وتســـتمر القصـــيدة من عام إلى عام وتنتهى بسنة ٣٢٢ هـــ . وهى رتيبة بشـــكل مفـــرط ، إذ تكـــرر نفـــس الأقوال ، من وصف مجموعة من الغارات ، والحصـــار، والتسليم ، والتخريب، وهدم الحصون ، والثورات ، وفرض الشروط وما إليها . ويذكر عددا كبيرا من الاسماء المحلية ، التى نالها قدر كبير من التحريف فى الطـــبعات المصرية، ولكن من المستطاع ولا شك تصحيحها بمقابلتها على كتب الـــتاريخ النـــثرية ، أو تحقيقهـــا فى الكـــتب الجغرافية. ويورد أسماء قليل جدا من الاعداء، وينعتهم بألقاب السب .

Marfat.com

وينـــبغى على المرء ألا يتوقع ، مما لا يدعى أكثر من كونه قائمة بالغارات ، تاريخـــا متواصل الحلقات أو واضحا ، لذلك ليست القصيدة أكثر من مذكرات ، وليست بجيدة . ويجب على المؤلف ، كى يردها تاريخا ، أن يخصص دراسة أكثر من الـــتى ذكـــرها للأوضـــاع ، ليخبرنا بشىء عن الحالة الداخلية فى المدن المفتوحة، والاسباب التى أدت إلى الثورات المتعاقبة ، والاعدادات التى أدت فى كل حالة إلى الـــنجاح أو الفشل . يفعل ما يشبه ذلك أحسن مؤرخى الاغريق ، ولكن قليلا من الكتب العربية التأريخية تذهب إلى هذا المدى : وإن عالجت أحسن أصنافها فى شىء مـــن الاطالة والتفصيل الحالة الداخلية للبلاد التى تسجل تاريخها ، لتزيد ما ترويه وضـــوحا وتعليمية. وليس من اليسير على المادح أن يقوم بشىء من هذا القبيل ، لأن الـــترجمة الصـــحيحة للملك ، أو القائد ، أو رجل الدولة ، بينما تضم وصف المصاعب التى اضطروا إلى مواجهتها، تستطيع أن تعزو إليهم فى أحوال قليلة ألوانا متغايرة من النجاح فى معالجة أمثال هذه الصعوبات : ويكشف مثل هذا القول عن وجـــوه الضـــعف والفشل ، بل من الممكن أن يكشف جرائم ، كشفه عن القدرة والـــنجاح ، عند المتمسكين بالفضيلة . وإذن فعلى المادح ، الذى يخاف أن يجرح شعور راعيه ، أن يقتصر على ما يسره .

ومـــن المحتمل أن ينظر كل قارئ إلى قصيدة ابن المعتز نظرته إلى أعظم هذه الامثـــلة الثـــــلاثة من التاريخ المنظوم تعليمية وفكرية ، على حين تتمتع قصيدة أبى فراس بما يجعلها أقدر على المطالبة باسم الشعر ، وتضم حقا أبياتا على قدر كبير مـــن الجودة . وليس فى أرجوزة ابن عبد ربه صفة تُمدح سوى السهولة التى قيل بها الرجـــز وربما بعض المعرفة بالجغرافيا الاسبانية . ويقترف المؤلف غلطة سخيفة حين يجعل المسيحيين يقسمون بالأصنام المذكورة فى القرآن . وقد حصلت مختاراته على

Marfat.com

بعـــض الشـــهرة لطبيعة محتوياتها الموسوعية: ولكن الصاحب بن عباد وجدها مخيبة للآمـــــــال ، إذ كان يتوقع من كتاب لمؤلف اسبانى أن يحتوى على مواد أصيلة أكـــثـــــر مما يحتوى عليه الكتاب الحالى . فاستشهد بما جاء فى ســـورة يوسف، الآية ٦٥ : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ .

وتمـــثل هـــذه القصائد الثلاثة أسمى مرحلة وصلت إليها الملحمة التاريخية فى الشـــعر العربى : ومن المرجح ، كما قد رأينا ، أن يفضل أى قارئ لها قصيدة ابن المعـــتز . أما الآثار الاخرى التى يطلق عليها لقب « القصائد المؤرخة » فأبعد من هذه كثيرا عن التاريخ. كذا قصيدة ابن بدرون ، الكاتب الأندلسى ، وهى خليط مـــن الاشـــارات التاريخية ، أُريد أن تفسر فى شرح . وكذا القصيدتان اللتـــــان تدعيان تأريخ الحميريين ، وواضح أنهما متأخرتان وغير تاريخيتين : إذ يجب أن يترك كشف الستار عن هذا التاريخ إلى من يأتى من المنقبين والأثريين .

ومهمـــا يكن من قول ، فسيجد دارسو تاريخ الدول الإسلامية فىالدواوين الشـــعرية عونا لهم ، لا لأنها تسجل الوقائع ، التى قلما تسجلها ، وإنما لأنها تبرز كـــثيرا من الاوضاع السياسية، وترمى إلى الهدف الذى ترمى إليه الصحافة الشعبية إلى حـــد مـــا . ومن الطبيعى أن الدواوين تختلف كثيرا فى إمكانية استخدامها لهذا الغرض تبعا لسير مؤلفيها : وأكثرها تعليمية أمثال ديوان البحترى فى القرن الثالث والـــتعاويذى فى الســـادس ، ذلكما الديوانان اللذان عاش مؤلفاهما فى بلاد ملوك مختـــلفين وأبـــرزا فى أمانـــة المشاعر التى أثارتها الاحداث المعاصرة . وقالا ما أراد الخلفاء أو الوزراء أن يقولوه : ونستطيع ان نستخلص من قصائدهما ماكان يشغل انتـــباه الـــرأى العام ، وكيف رغب الجمهور فى اعتباره . وتجعلنا قصائد البحترى نشـــعر كيف أثر خطر الزنج فى شعب العراق . ويظهر التعاويذى الاحساس الذى

Marfat.com

أثارتــه الحــروب الصليبية . أما حين لا تدوم صلة الشاعر بالبلاط ، كما فى حالة المتــنبى ، الــذى ســعى وراء حظــه فى عدد كبير من قصور الامراء ، فتقل قيمة المعــلومات المــنقولة : ويكون الشاعر فى حالة غير كافية لتدمجه فى جماعة ليصور مشاغلها تصويرا دقيقا .

هكــذا أجبــنا على سؤال يقدم أحيانا ويجاب عليه بالنفى : وهو أيوجد فى الشــعر العربى ما يماثل الملحمة ؟ (*) فإذا كنا نفهم من الملحمة القصيدة المؤرخة ، الــتى قد تمثل لها بخلاص بيت المقدس لتاسو Tasso ، أو الملاحم الهندية العظيمة ، فقد رأينا إذن أن اللغة تبين بعض الجهود للسير فى هذا الاتجاه : وطبيعى أن المؤلفين اخــتاروا بحر الرجز ، باعتباره الاسلوب الملائم للشعر التعليمى . وبينما صنع ابن المعــتز عملا فنيا ، لم يذهب ابن عبد ربه إلى أكثر من مذكرات أو موجز للوقائع يســهل تذكره عن الوصف النثرى. أما عدم إنتاج اللغة فى هذا السبيل شيئا أكثر جــودة من القصائد التى حللناها فراجع أولا إلى أن القصيدة بانتقالها الفجائى من موضوع إلى موضوع لم تكن صالحة لأن تعطى قصيدة ذات موضوع واحد مترابط . وثانيا إلى أنه لا يصلح لهذا التأليف غير بحر الرجز ، وعندما لا تلتزم القافية إلا فى شطرى البيت الواحد. أمــا الصورة القديمة من القصيدة ، التى يلتزم فيها قافية واحدة ، وأما الاوزان الاخرى ، فكانت أشق كثيرا من أن تخضع لموضوع طويل . ولذلــك بقيــت أمــثال تلك المحاولات التى حللناها نادرة وإن استمر المادحون والهجــاءون بالطبع يشيرون إلى الاحداث المهمة المتصلة بموضوعاتهم : وكثيرا ما يشــير المؤرخون إلى هذه الاشارات لجمال الشعر ، أكثر من إشارتهم إليها لتأييد مايروونه .

(*) للإجابة على هذا السؤال انظر كتابى « فى الشعر العربى » . ص ٢٠ - ٣١ - المترجم .

Marfat.com

الفصل الخامس

مؤرخو القرن الثانى

{ أبو مخنف لوط بن يحيى }

يعتبر تأسيس بغداد علامة تميز ابتداء الحقبة الادبية فى العربية بمعنى أن الكتب أخـــذت تؤلـــف لتقرأ وتروَى وتحفظ ، وإن كان من العسير النيل من إيمانهم بأن الرواية الشفوية وحدها هى الوسيلة الموثوق بها . وليس من اليسير حقا أن نميز بين المؤلـــف الذى قصد أن تروَى مادته والمؤلف الذى دونها : وكان من المستطاع أن توجـــد الاخبار المعزولة مدونة أو مروية شفاها ، ويبدو أن الآثار التى وجدت قبل كـــتب التـــاريخ المتصلة المطردة ، كانت على هذه الصورة . ومن هذا اللون كان أبـــو مخنف لوط بن يحيى ، الذى توفى حوالى ١٥٧ ، ويعزى إليه ٣٢ كتابا . وقد أدخـــل الطبرى فى كتابه كثيرا من رواياته . ومن المفترض أن رواة مختلفين من هذه الحقـــبة المبكرة تخصصوا فى أجزاء من موضوعهم : وكان أبو مخنف أكثر من غيره معـــرفة بـــأمور العراق ، والمدائنى بشئون خراسان ، والهند ، وفارس ، والواقدى بالحجـــاز ، عـــلى حين كانوا جميعا على معرفة متكافئة بفتوح سورية . ويعالج كل كتاب من كتب أبى مخنف جميعها حادثا واحدا : فهى رسائل عن مواقع ، أو وفيات المشـــهورين ، أو أحـــداث كان لها أهميتها فى التاريخ القديم . وقد قال عنه أحد المتزمتين : كوفى ، وليس حديثه بشىء .

Marfat.com

{ عوانة بن الحكم }

وقد نذكر بين رواة المعرفة الذين ظهروا قبل شيوع الكتب المدونة عَوَانة بن الحَكَم ، وكان من أصل وضيع ، إذ كان أبوه عبدا خياطا وأمه أَمَة سوداء ، ولكن استقى من معارف علماء الجيل التالى ؛ واختلف فى وفاته بين عامى ١٤٧هـ و ١٥٨ هـ . وكان من العلماء بالفتوح خاصة ، مع علم بالشعر . وقيل إنه كان عثمانى الهوى يضع الأخبار لبنى أمية : ولكن رواية أخرى تجعله علويا ، يأسف لفشل محمد بن عبد الله ، الذى خرج على الخليفة المنصور ، ولكنه هُزم وقتل . ويقول ياقوت إن عامة أخبار المدائنى ، الذى سنذكره حالا ، عن عوانة : وكان النحوى والمنقب المشهور ، الأصمعى ، ممن سمعوا منه . ولا تلقى الأخبار التى يرويها ياقوت عنه غير قليل من الضوء على نشاطه معلما أو جامعا للمعلومات : وأهمها تلك التى تجعله يقول ، عندما سئل عن قبيلته : من قوم إذا نسى الناس علمهم حفظوه عليهم . فقال السائل : فأنت إذن من كلب ، وهى قبيلة ابن الكلبى المشهور ، الذى سيقابلنا توا . ولا يقوم هذا الحكم العام على أمثلة كثيرة .

ومهما يكن الأمر فإنهم لم يميزوا أعمال الرواة من غيرهم قبل أن تتخذ الروايات صورة ثابتة صالحة للتدوين . فنجد الرجال يُذكرون بين رواة الأحداث التاريخية والأحكام الفقهية . إذ أن اعتماد القانون على الحديث والحديث على التاريخ جعل فى الإمكان الخلط بين مهمة العلوم الثلاثة حتى فى العصور المتأخرة جدا .

Marfat.com

{ محمد بن إسحاق }

ويبـــتدئ هذا الأدب النثرى بصورة واقعية بسيرة النبى لمحمد بن إسحاق ، الذى كان جده يسار من سبى عين التمر ، وهو أول سبى دخل المدينة من العراق. واختـــلف فى وفاته بين ١٥٠ أو ١٥١ أو ١٥٢ هـــ : ودفن بمقابر الخيزران، عند قبر الإمام أبى حنيفة . ويقال إنه أول من جمع مغازى رسول الله . ويبدو أنه وقع فى مشـــاكل فى المدينـــة لسعيه وراء الأخبار لدى فاطمة بنت المنذر بن الزبير ، فكره ذلـــك زوجهـــا هشـــام بن عروة . فهرب إلى الحيرة ، وكان بها المنصور ، فأهداه مغازيه: وسمع منه أهـــل الجزيرة والرى ، حيث أقام كثير من رواة أخباره. وتختلف الآراء أشـــد الاختلاف فى تعديله : فلم يرو عنه رأس محدثى القرن الثالث. ويُروى عـــن آخـــرين أنهم قالوا : لا يزال فى الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق. ولكن مالك بن أنس أطلق عليه لقب « الدجال » ، وربما كان سبب ذلك نقده أحاديث مـــالك . وأُخـــذ عـــليه أيضـــا أنه كان يتشيع ويروى عن حفيد الحسن : وأنه استخدام جماعة من الناظمين ليؤلفوا له الأشعار ليدخلها فى سيرته ، كأنما نظمت فى مناســـباتها ، مـــثل القصـــيدة التى يدافع فيها أبو طالب عن ملكه أمام مواطنيه ، والقصـــائد المنسوبة إلى كلا الفريقين فى المغازى ، إلخ . أضف إلى ذلك أنـــه غلط غـــلطا فاحشا فى الانساب التى ذكرها : وأنه روى عن اليهود والمسيحيين ، الذين يسميهم « أهل العلم من أهل الكتاب الأول » . وألف إلى جانب سيرته كتاب الخلفاء (لاشك أنه يريد الامويين) وكتاب المبدأ [1] .

---

(١) كـــتاب المـــبدأ هو الجزء الاول من المغـــازى ، ويراد بالمبدأ تاريخ البشر منذ الخلق الاول إلى ما قبـــل الإسلام . وانظـــــر المغازى الاولى ومؤلفوها لهوروفتس ، ترجمة المترجم الحالى .

Marfat.com

ولم نحصـــل على سيرة ابن إسحاق العظيمة ، كما هو معروف : وإنما نعرف محتوياتها من المقتطفات التى يوردها ابن هشام والطبرى ، والتى يكمل بعضها بعضا إلى حد ما .

{ المدائنى }

وبقية مؤلفى هذه الحقبة أقرب إلى أن يكونوا جامعين لاخبار خاصة منعزلة ، لاشـــك أنها اتخذت صورة محددة ، ولكن الشك حول نيتهم : أكانوا يقصدون بها التأليف أم مجرد التدوين لمساعدة الذاكرة . ومن أكثر هؤلاء المؤلفين تأليفا على بن محمـــد بن عبد الله المدائنى ، المولود ١٣٥ هـــ والمتوفى ٢٢٥ هـــ . وكان مولده ومنشـــؤه البصرة ، ثم صار إلى المدائن ، التى نسب إليها ، ثم صار إلى بغداد ، فلم يـــزل بها إلى أن مات . وحظى بحب إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، الذى نعرف من الاغـــانى أنـــه كان موسيقيا محترفا ، ولكنه كان ماهرا فى غيرها من الموضوعات. ويـــروى خـــبر عن بضعة رجال من المشهورين ، كانوا جالسين العشية على باب مصـــعب الزبيرى ، فمر بهم رجل على حمار فاره وبزة حسنة . وعرف أحدهم أنه المدائنى وسأله : إلى أين ؟ فأجاب : « إلى هذا الكريم الذى يملأ كمى من أعلاه إلى أســـفله دنانير ودراهم » . يريد إسحاق الموصلى . فقال عنه يحيى بن معين ، وهو المحـــدث العـــدل الضابط : ثقة ، ثقة ، ثقة . أما القصة التالية فتنتقص منه . روى المدائـــنى خبرا عن إغارة خالد على سورية ، تضمن بيتا من الشعر عن دليله رافع . فصـــحف المدائنى كلمة منه ، فقال الراوى : « علمت أن علمه من الصحف » — لا من الرواية ، كما يجب . ويروى المدائنى نفسه خبرا عن أمر المأمون إدخاله عليه. وحديثه إياه ، فحدثه بأحاديث ، ثم ذكر لعن بنى أمية لعلى بن أبى طالب . ويسجل تـــأييدا لذلك أنه لم يسمع بالشام فى عهد الامويين أحدا يسمى عليا ولا حسنا ولا

Marfat.com

حسينا : وإنما معاوية ويزيد والوليد من أسماء خلفاء بنى أمية . فمر مسافر فى ذلك الوقت بدار فاستسقى صاحبها ، فسمعه ينادى ابنا له باسم الحسن ليسقيه . فسأل المسافر : كيف سمى ابنه بذلك الاسم . فكان جوابه : إن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ولا يزال أحدنا يلعن ولده ويشتمه ، وإنما سميت أولادى بأسماء أعداء الله، فإذا لعنتُ إنما ألعن أعداء الله . وكان المقصود من هذا الخبر أن يؤثر فى الخليفة : ولعله فعل ، إذ عزم مدة أن يتخذ من أحد العلويين وليا لعهده . ولكن الراوى افترض أن الخليفة سيذهب إلى أن ذلك اللعن مناسب .

وتشبه قائمة كتب المدائنى التالية مجموعة من الفصول أو الابواب أكثر من شبهها الكتب المطردة . وتنقسم إلى مجموعات ، أولاها أخبار النبى ، وأمثلتها « كتاب أمهات النبى » أى جداته . صفة النبى . أخبار المنافقين . عهود النبى . تسمية المنافقين ، ومن نزل فيه القرآن منهم ومن غيرهم .

والمجموعة الثانية أخبار قريش ، وتستهل بنسب قريش وأخبارها . فكتاب العباس بن عبد المطلب . وأخبار أبى طالب وولده .

المجموعة التالية : مناكح الاشراف وأخبار النساء : ويبدو أنها كانت مجموعات من الاخبار العربية ، مثل كتاب من جمع بين أختين ، ومن جمع أكثر من أربع ، ومن تزوج مجوسية . وكتاب من قتل عنها زوجها . وكتاب من هجاها زوجها أو شكاها.

المجموعة التالية : أخبار الخلفاء . وهى كل ما يجب أن نسميه رسائل Monographs ، وواضح أنها مؤلفات قصيرة تعالج بعض الابحاث الصغيرة .

Marfat.com

كـــتاب مـــن تـــزوج من نساء الخلفاء . تسمية الخلفاء وكناهم وأعمارهم . حلى الخلفاء .

وفى آخـــر هذه القائمة كتاب أخبار الخلفاء الكبير ، ابتدأه بأخبار أبى بكر، وخـــتمه بأخبار المعتصم . ولا شك أن مانجده عند المؤرخين المتأخرين ، مرويا عن المدائنى ، مقتطفات من هذا الكتاب .

المجموعـــة التالية فى الاحداث ، وهى رسائل صغيرة تعالج الاحداث الرئيسية فى تاريخ الإسلام : كتاب الردة ، أى الثورة التى تلت وفاة النبى . كتاب الجمل ، الموقعـــة الـــتى هزم فيها على عائشة وحزبها . كتاب النهروان . كتاب الخوارج . خطـــب على كرم الله وجهه وكتبه إلى عمـــاله . أخبار الحجاج ووفاته . ويضيف يـــاقوت إلى هـــذه القائمة الطويلة كتابا كبيرا لم يذكره الفهرست ، باسم كتاب الدولة العباسية ، ولكن بعضه وقع إلى ياقوت بخط السكرى ، العالم المنقب .

المجموعـــة التالية فى الفتوح : فتوح الشام منذ أيام أبى بكر وإلى أيام عثمان . فـــتوح العـــراق مـــنذ أيام أبى بكر – تؤرخ هذه الفتوح عادة بتاريخ متأخر بعض الشىء – وإلى آخر أيام عمر . فتوح خراسان وأخبار أمرائها ، كقتيبة ونصر بن ســـيار . وتعـــالج اثنـــتان من هذه الرسائل الصغيرة الهند : وهما كتاب ثغر الهند ، وكـــتاب أعمال الهند . ويبدو أن القائمة الطويلة بهذه المقالات تغطى جميع منطقة الفـــتوح الإسلامية عدا إفريقية الشمالية واسبانيا ، اللتين لا تذكران فيها . ولعل كـــثيرا من المادة نفسها دخل فى كتاب البلاذرى الذى وجد فى العصر التالى . وقد عـــزى إلى الواقـــدى فى حقبة غير سابقة على عصر الحروب الصليبية مجموعة من الكـــتب الخاصة ببعض تلك الفتوح ، والمصطبغة بصبغة خيالية محضة فى ظواهرها وعلاجها .

Marfat.com

المجموعة التالية في أخبار العرب ، التي تضم مجموعات من المواد الغريبة التي تمثل الاساليب العربية : كتاب من نسب إلى أمه ، وكتاب من سمى باسم أمه ، وكتاب الخيل والرهان، وكتاب بناء الكعبة .

وتعالج المجموعة التالية التاريخ الشعرى : وكثير من الموضوعات ذو عناوين توحي بأن المؤلف كان مهتما بالتفاصيل الغريبة : كتاب من تمثل بشعر في مرضه، كتاب الابيات التي جوابها كلام ، كتاب من وقف على قبر فتمثل بشعر ، كتاب من بلغه موت رجل فتمثل شعرا أو كلاما ، كتاب من تشبه من النساء بالرجال ، كتاب من فضل الاعرابيات على الحضريات ، إلخ .

ويذكر ياقوت بالاضافة إلى هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل الصغيرة قائمة أخرى بالكتب المؤلفة، ويبدو أنها تضمنت مادة أكثر أصالة من الكتب السابقة ، التي لعلها كانت روايات مسوقة بعضها وراء بعض : ومما يقترب من التاريخ منها كتاب قضاة أهل المدينة ؛ كتاب مكة . أما بقية الكتب فأكثر اصطباغا بالصبغة الاخلاقية ، وأحدها مقالة جغرافية يحتوى على الكور وجباياتها .

وواضح أن نشاط المدائني الادبي مدهش ، حتى لو كانت الرسائل ذات حجم متوسط . وظاهر أنه كان ميالا إلى المعارف الغريبة والتفاصيل المشوقة ، ولكنه يمثل مرحلة انتقال من الرواية المفردة إلى الكتاب المطرد ، لو وثقنا بالخبر القائل إنه ألف كتبا من الصنف الاخير .

وتوجد عدة مقتطفات من أبحاث المدائني عند المؤرخين المتأخرين ، وفي العقد الفريد للجمّاعة الأندلسي ابن عبد ربه . وربما كانت مجموعته من خطب على

Marfat.com

كاملة فى هذه الكتب ، ولعله راوى مجموعة الرسائل المتبادلة بين على ، ومعاوية ، وغيرهمـــا ، المحفوظة فى الكتاب نفسه ، والمذكورة فى غيره من الكتب . ويقال إن كثر مادته عن عوانة . ولكن القيمة التى يمكن أن نعطيها لهذه الوثائق مشكوك فيها أشـــد الشك ، كما سنرى بعد . فقد جمع أحد المشهورين من آل على ، الشريف الرضى ، فى حقبة متأخرة ، هى أواخر القرن الرابع ، مجموعة مما بقى من آثار جده العظيم سماها نهج البلاغة ، وظاهر أن هذا الشخص لم يثق كثيرا بمجموعة المدائنى. وعلينا أن نبحث فى المجموعتين كلتيهما ، فى الرسائل والخطب ، عما إذا كان هناك احـــتمال بـــأن يطلع شخص على الرسائل التى تسلمها الفريقان كلاهما ، أو على الخطب المدونة أو المحفوظة ، فى الوقت الذى يقصد منها أن تؤثر فى سلوك الناس ، لا أن تـــثير اهـــتمامهم باعتبارها أثرا تاريخيا أو نمطا من أنماط الاساليب . ويزداد احـــتمال الاحـــتفاظ بالرســـائل المتبادلة بين المنصور ومحمد بن عبد الله العلوى ، المطـــالب بالخلافة ، تاريخية ، على الرغم من اختلاف النسخ الواردة عند الطبرى والمـــبرد فى بعـــض التفاصيل المهمة . ولكن المرجح أن فرص الاحتفاظ بأمثال هذه الرسائل قبل إيجاد هذا الديوان كانت قليلة ضئيلة .

Marfat.com

{ هشام الكلبى }

ويشـــبه المدائـــنى فى موضوعاته وطريقة علاجه هشام بن محمد بن السائب الكـــلبى، الـــذى كان من الطبقة الاولى فى الانساب : ويقال إن أحد كتبه فى هذا العـــلم لا يـــزال موجودا . ويقال إنه توفى عام ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـــ : وتزيد قائمة كتبه عن ١٥٠ . وقد طبع أحدها ، وهو كتاب الاصنام ، وحجمه صغير ، ويرجح أن بقيـــة كتـــبه من الحجم نفسه . ويشتبه كثير من العناوين بعناوين تلك المقالات المذكـــورة فى قائمة المدائنى . ويعالج كثير منها التاريخ الجاهلى ، مثل كتاب ملوك كـــندة ، وكتاب ملوك اليمن من التبابعة ، وكتاب ملوك الطوائف – وهى عناوين لا توحـــى بكـــثير من الثقة ، إذ ليس من المحتمل أن يكون لدى ابن الكلبى معرفة بالـــنقوش الـــتى لا يمكن إبانة هذا التاريخ إلا منها ، والتى كان الهمدانى الجغرافى العربى الوحيد الذى حصل عليها واستخدمها فى مثل هذا البحث . وعالجت عدة رســـائل ألوانا مختلفة من الماضى الجاهلى ، مثل كتاب أديان العرب، وكتاب حكام العرب، وكتاب الكهان ، وكتاب الجن . ولكن بعضها ذوو قوائم تبدو بأنها تاريخ فعلى ، مثل كتاب أولاد الخلفاء . وعالج غيرها أحداثا كانت فى عهد النبى ، وكان غيرهـــا ذا صـــبغة جغـــرافية أو إحصـــائية . ويقـــال إنـــه عاش فى كنف أحد البرامكـــــــة .

{ الواقدى }

ولا شك أن المؤلف الذى حاز أعظم الشهرة فى هذا القرن هو محمد بن عمر الواقدى، الذى طال به العمر من ١٣٠ إلى ٢٠٧ هـــ . ويعد الواقدى أعلى مترلة مـــن المدائنى والكلبى كليهما ، ويقال إنه سمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى،

Marfat.com

وكلاهمـــا من أسمى الفقهاء منزلة: ويقال ايضا إنه لقى ابن جريج الذى يرتبط اسمه مبتدأ دراسة الحديث . وكان الواقدى حجة فى الحديث والفقه شأنه فى التاريخ مثله مـــثل الطبرى الذى سيشغلنا فى المحاضرة التالية . وقد ولاه الرشيد القضاء بشرقى بغـــداد ، ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدى . ويروى ياقوت قصة تمثل علاقة الواقدى بالمأمون . كتب الواقدى إلى المأمون مرة يشكو ضائقة ركبه بسببها دين ، وعيَّـــن مقـــداره. فوقع المأمون على قصته بخطه . فيك خلتـــان: سخاء وحياء ، فالســـخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت ، والحياء حملك على أن ذكرت لنا بعض دينـــك ، وقـــد أمـــرنا لك بضعف ما سألت ، وإن كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايـــتك على نفسك ، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد فى بسطة يدك، فإن خزائن الله مفـــتوحة، ويده بالخير مبسوطة ، وأنت حدثتنى حين كنت على قضاء الرشيد : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للزبير : « يا زبيرُ ، إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله سبحانه وتعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن كَثّر كُثّر له ، ومن قَـــلّل قُـــلّل عليه » . قال الواقدى : نسيت الحديث ، وكان تذكيره لى به أعجب من صلته .

وهـــــاك قصة يفترض أن الواقدى رواها . قال : كان لى صديقان أحدهما هاشمى ، وكنا كنفس واحدة ، فنالتنى ضيقة شديدة وحضر العيد . فقالت امرأتى : أما نحن فى أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبى رحمـــة لهم ، لانهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا فى عيدهم وأصلحوا ثيابهم ، وهم عـــلى هذه الحال من الثياب الرثة ، فلو احتلت بشىء نصرفه فى كسوتهم . قال : فكتـــبت إلى صديقى الهاشمى أسأله التوسعة علىَّ بما حضر . فوجه إلى كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف درهم . فما استقر قرارى إذ كتب إلىَّ الصديق الآخر يشكو مثل

Marfat.com

مـــا شكوت إلى صاحبى. فوجهت إليه الكيس بحاله. وخرجت إلى المسجد فأقمت فيـــه ليلى مستحييا من امرأتى . فلما دخلت عليها وأخبرتها بما فعلت ، استحسنت مـــا كـــان مـــنى ، ولم تعنفنى عليه . فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقى الهاشمى ومعه الكيس كهيئته، فقال لى : اصدقنى عما فعلته فيما وجهت إليك . فعرفته الخبر على وجهـــه، فقـــال : إنك وجهت إلىَّ وما أملك على الارض الا ما بعثت به إليك ، وكتـــبت إلى صـــديقنا أســـأله المواساة ، فوجه إلىَّ كيسى بخاتمى . قال الواقدى : فتقاسمنا الكيس أثلاثا . ونما الخبر إلى المأمون ، فدعانى ، فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحد ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار .

ويروى ياقوت خبرا عن ضخامة مكتبة الواقدى ، يقول : لما تحول الواقدى مـــن الجـــانب الغربى يقال إنه حمل كتبه على عشرين ومئة وقر : وبرغم ذلك كله كـــان يقـــول مفتخرا : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظى أكثر من كـــتبى. ويقتضـــى ذلك أن الثمرات الادبية للأعوام الستين من عمره كانت غير عاديـــة: وبالرغم من ذلك يبدو أن الادلة قوية على كراهية التدوين التى استمرت حتى إلى ما بعد منتصف القرن الثانى ، بحيث لا يشك فيها .

وقائمة كتب الواقدى طويلة ومتنوعة : وكثير من الكتب المذكورة فيها من الـــنمط الـــذى كان المدائنى يؤثره : رسائل صغيرة عن أحداث خاصة فى التاريخ الإســـلامى : ويمثلها كتاب السقيفة وبيعة أبى بكر : وكتاب وفاة النبى : وكتاب الـــردة والـــدار ، يـــريد بالدار مقتل عثمان : وسبب جمعه بين هذين الحادثين غير واضـــح : وكـــتاب صفين ، إلخ . وعلى رأس هذه الكتب التاريخية كتاب التاريخ الكـــبير ، وكتاب التاريخ والمغـــازى والبعث ، وهو تاريخ لبعثة النبى ، ومغازيه .

Marfat.com

ونستخلص من العناوين أن جميع هذه الكتب ، لوبقيت ، لكان لها قيمة تاريخية كبيرة .

وأطرى الباحثون الاوروبيون الواقدى لاهتمامه الخاص بالأزمنة، وأحكام ثقات المسلمين عن كتابه فى جانبه فى معظم الاحيان ، وإن لم تجمع على ذلك . والكتاب الوحيد الذى رأى الضوء من كتبه جزء من مغازيه ، نشر هنا (كلكتا) ، وترجمة ألمانية لمخطوطة أكمل محفوظة فى المتحف البريطانى. وتضم قائمة كتبه بعض الفتوح ، فتوح الشام ، وفتوح العراق . ولكن الكتب التى طبعت تحت هذه الأسماء معزوة إليه ، كما قد رأينا ، كتب ظنية ، وليست بذات قيمة تاريخية.

{ الهيثم بن عدى }

والهيثم بن عدى ، الذى عاش فيما بين سنتى ١٣٠ و ٢٩٠ هـ ، كاتب آخر من المكثرين فى التأليف، يكثر ورود اسمه بين رواة الاخبار التاريخية. ويشبه مجال دراسته مجال ابن الكلبى ، الذى كان يذوب أمامه : لتفوقه عليه تفوقا ظاهرا . ولايثق عظماء المحدثين بروايته . ويروى عن جارية له أنها قالت : كان مولاى يقوم عامة الليل يصلى ، فإذا أصبح جلس يكذب . وقد امتد حب استطلاعه إلى الشئون الخاصة لمعاصريه ، الذين دفعوا الشعراء لهجائه . ويضم ديوان أبى نواس أهجية لاذعة فيه ، يقال انها قيلت فيه بسبب إخفاقه فى معاملة هذا الرجل المهم بالاحترام الملائم له عندما حضر لسماع إحدى محاضراته . وتضم قائمة كتبه الطويلة جدا مجموعة من عناوين الرسائل الصغيرة التى تعالج فصولا من

Marfat.com

الـــتاريخ القبلى الجاهلى ، أو أحداث صدر الإسلام ، أو مواد أثرية متصلة بالمدن الإســـلامية والهيئات الإسلامية . فنجد فيها تواريخ ولاة وقضاة الكوفة، والبصرة وما شابههما . ولكن فيها أيضا « كتاب التاريخ مرتبا على السنين » ، ولابد أنه مثال قديم جدا من أمثلة هذا اللون الذى سيصير بعد لونا عاديا . وربما نستنتج أن كتبه حازت شهرة كبيرة فى حياته من الخبر القائل بأن الخليفة هارون الرشيد عرف حالا أنه الشخص المذكور فى هجاء أبى نواس ، عندما شكى أمامه .

{ الزبير بن بكار }

يقابلـــنا شخص آخر كثيرا بين رواة الاخبار التاريخية، هو الزبير بن بكار . ويقـــال إنه من أبناء عبد الله بن الزبير – الذى نصب نفسه خليفة مدة – صلية . ومات قاضيا على مكة فى ٢٥٦ هـــ. وقائمة كتبه على شىء من الطول ، وتتألف بصـــفة رئيسية من تراجم الشعراء : ولكن بعضها تناول أحداثا تاريخية . ونجد فى القائمـــة مـــثالا قديما من أمثلة تسمية الكتب بأخبار من ألف لهم . فقد سمى مقالة تاريخيـــة « الموفقيات » ، ألفها للموفق بالله ، أخى المعتمد الذى كان القائم بأمر الدولة .

ويوجـــد كثير من الأحاديث أو الرويات التى جمعها هؤلاء الرجال سليما فى الكـــتب المـــتأخرة : وما نجده واضحا فى تلك الحقبة هو عملية جمع المكتبات، وإن ارتحـــل الراغـــبون فى أن يكونـــوا ثقات فى التاريخ فى أنحاء الامبراطورية ليسمعوا المحاضـــرات المشـــهورة . فيروى أن أبا عون بن عطاء وصلت الكتب فى بيته إلى السقف : وقد توفى سنة ١٥٤ هـــ ، أى فى الوقت الذى لم يكن فيه الأدب النثرى

Marfat.com

لا شيئا بادئا . ويضاف أن أبا عون أحرق مكتبته قبل وفاته ، وهو عمل يروى عن عـــدد غير قليل من الرجال. وتوجد رسالة حفظها أبو حيان التوحيدى بتاريخ سنة ٤٠٠ تقريـــبا ، يدافـــع فيها عن مسلكه هذا بالاستشهاد بكثير من المشهورين . ويـــتوهم المرء أن الدافع الاساسى كان الرغبة فى أن يعتبره الناس المرجع المطلق فى موضوعه : إذ لو حفظت المراجع المدونة لمؤلف ما ، فربما فضل من جاء بعده ذكر هـــذه المراجع على الكتاب القائمين عليها . وتدل عبارة الخبر فى حالة أبى عون أنه فعـــل ذلـــك تورعا ؛ إما أن هذا المنقب رجع إلى الرأى القائل بكراهية تدويـــن الكـــتب ، أو أنه ظن أن محتوياتها تافهة . وجدير بالملاحظة أن الملكية فى الكتب لم تكن بعد حقا معترفا به ، فى تشريع أبى يوسف ، فى عهد هارون الرشيد : والكتب الوحيدة التى يبدو أن هذا الفقيه عرفها هى القرآن ودواوين الشعر .

{ إبراهيم بن محمد بن سعيد }

عـــلى الرغم من شيوع التاريخ المطرد فى القرن الثالث ، على حين تناثر ما وجد منه فى القرن الثـــانى، احتفظت الرسائل الصغيرة بشيوعها فى القرن الثالث . وكـــان مـــن المؤلفين المكثرين من هذا اللون إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال ، الكـــوفى الاصـــل ، والذى انتقل منها إلى أصفهان ، وأقام بها إلى أن مات فى سنة ٢٨٣ هـــ . وادعى أنه سليل عدة آباء مشهورين : فكان أحد أجداده عم المختار ابـــن أبى عـــبيد المغامر ، وهو الذى لجأ إليه الحسن حفيد النبى. وكان زيديا أولا ، وانـــتقل إلى الامامية ، وصار من مشهوريها . وتبدو قائمة كتبه التى تشغل صفحة كامـــلة كأنمـــا هى نسخة من قائمة بعض المجموعات فى ثبت المدائنى : ففيها كتاب الســـقيفة ، وكـــتاب الـــردة ، وكـــتاب مقتل عثمان ، وكتاب صفين ، وكتاب

Marfat.com

الحكمين، ... إلخ . ولا شك أن جميع هذه الكتب تبرز هذه الاحداث المهمة من وجهـــة نظر الفرقة التى انتمى إليها . وكان كالواقدى فقيها أيضا ، وألف نشرات ومقـــالات عن فصول منفصلة . وعبر عن شعوره تجاه وطنه بكتاب فضل الكوفة ومـــن نزلها من الصحابة . وينتمى أحد كتبه ، واسمه كتاب من قتل من آل محمد ، إلى لون من الكتب كثير معروف فى أدب الشيعة .

ويبدو أنه لم يبق من تواريخ هذه الحقبة ما يجعلنا قادرين على الحكم الصادق عـــليها، ســـوى تـــاريخين منها ، تاريخ محمد بن إسحاق والواقدى . أما محمد بن إســـحاق فمن المستطاع وصفه بأنه كاتب ساحر ، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تـــبقى قارئه متشوقا : ويستطيع أن يعطينا عن كبار الرجال الصنف الذى ييسر لنا تصـــورهم من المعلومات : ويستطيع أن يقدم لنا ، حين تحتاج الاخبار إلى تعليق من جـــانب المؤلف ، ملاحظات من المؤكد أنه لا يستطاع إغفالها ، وإن لم تكن مقنعة دائمـــا . وواضـــح أن ابن هشام الذى اقتبس من ابن إسحاق كان ذا أفكار عن الملكية أعظم صرامة من ابن إسحاق نفسه . فقد اعترف المقتبس بأنه طرح المكروه من الاخبار، وكثيرا ما اعتذر عن عدم قدرته على ذكر الاشعار الموجودة فى كتاب ابـــن إسحاق ، لانها غير مناسبة . ويتفق بعض الاخبار التى أوردها مع ما وجد من الواقـــدى حرفا بحرف ، ومن المستطاع تفسير بعض الخلافات بينهما بالدوافع التى كانت تسيطر على جامع الاخبار. ويبدو ان قول ياقوت أن محمد بن إسحاق روى عـــن الواقـــدى يتعارض مع تاريخ حياتهما ، لأن الواقدى متأخر عنه . وإذ افتتح كتاب ابن إسحاق مجموعة من التراجم والتواريخ ، وكان من أسس كثير من السير النـــبوية المـــتأخرة ، التى لايستطاع إحصاؤها ، كان دين مستقبل الايام له عظيما جـــدا. وفى الوقت نفسه على وجه التقريب ، كان مالك بن أنس مشغولا بموطئه ،

Marfat.com

وهـــو المجموعة الأولى من أقوال النبى وأعماله التى من الممكن الرجوع إليها لتكملة القرآن : ويروى أن بعض معاصريه اعترضوا عليه لابتداعه مثل هذا الامر ، ولكن يقـــال إن الخـــليفة كان يعتبره منفعة عامة . وعلى الرغم من أن ترجمة ياقوت لابن إســـحاق طويـــلة ، لم يـــدون ما يشبه هذا الاعتراض فى حالته : فالاعتراض ليس موجها إلى تدوين السيرة ، وإنما إلى الخلود المفروض للمؤلف .

وليـــس من اليسير الاجابة عن السؤال ما إذا كان أحد من هؤلاء الكتـــاب أو المحدثين الذين اعتمدوا عليهم زيّف التاريخ فعلا لارضاء شخص أو فرقة مـــا . وكـــان المعـــتاد أن يضـــع الـــرواة ، عند روايتهم الاحداث ، الافكار المفترضة للمشـــتركين فيها ، فى ألفاظهم الخاصة ، كما قد رأينا : فوضعت المقابلات التى لا بد أنها كانت بطبيعتها سرية وبقيت كذلك ، على هيئة الحوار ، ثم ادعى من جاء بعدهـــم مـــن المؤرخـــين أن ما أمامهم ليس خيالا وإنما الحقيقة المجردة . وكررت التخمينات القائمة فى أغلبها على الاشتقاق اللغوى لا باعتبارها تفسيرات تخمينية ، وإنما باعتبارها مسجلات مروية . ولعلنا لو اكتشفنا نسخ الجهود الادبية للمدائنى ، والهيـــثم بـــن عدى ، وابن الكلبى ، وجدنا فيها كثيرا مما ترغمنا قوانين الاحتمال الـــتاريخى عـــلى رفضه . ولكن مهما كان الامر فإن الخدمة التى أدوها بتشكيلهم مجموعـــات الاخـــبار المتعلقة بالاحداث المهمة فى الخلافة الإسلامية عظيمة جدا . ويشـــبه عملهم فى تمهيد الطريق للتاريخ المطرد عند الطبرى عمل فقهاء المدينة فى تمهيد الطريق لتشريعات المذاهب المختلفة تمام الشبه . ولما كانت الاحداث لا يمكن تسجيلها إلا على يد مشاهديها أو المشتركين فيها ، فقد استلزم جمع هذه المادة من مصـــادر بهـــذه الكـــثرة بحثا واسعا ، وأسفارا بعيدة فى غالب الامر . ولما لم تكن الاحـــداث مقصـــورة على مساحة معتدلة كالحجاز مثلا ، وإنما منتشرة فوق بقعة

Marfat.com

كـــبيرة تشـــغل أجـــزاء من قارتين أو ثلاث ، لم يكن من اليسير بلوغ أى مصدر للمعرفة . وعاونت دراسة الحديث النبوى ، والتاريخ ، والجغرافيا بعضها بعضا فى تطويـــرها ، إذ لمـــا كـــانت وسيلة الحصول على المعلومات عن الاولين من هذه الموضـــوعات الرحلة ، صارت كتب المسالك والممالك عونا للمحدّثين والمؤرخين أيضا ، وإن قُصد بها معاونة الحكومة أولا .

Marfat.com

الفصل السادس

مؤرخو القرن الثالث

{ الطبرى }

القرن الثالث فى الإسلام من أغنى الحقب بالأدب العربى . فحيثما قلبنا النظر وجدنا كتبا قيمة تؤلف : كتبا ، صارت بعدُ موضوعـــــا للشرح . أو التقليد ، أو الاختصـــار ، أو الـــنظر إليها باعتبارها الاثر التقليدى الباقى ، وندين محمد بن جرير أبى جعفر الطبرى باثنين من أهم الكتب : تفسيره الكبير للقرآن . الذى يضم جميـــع ما احتفظت به الاحاديث خاصا بمحتويات الكتاب المقدس . وتاريخ الرسل والمـــلوك ، أو التاريخ العام ، الذى وصل به إلى عام ٢٩٨ هـــ . وترجمة ياقوت له مـــن أطول التراجم فى كتابه ، تشغل أربعين صفحة . وتبتدئ بإبانة العلوم الأربعة الـــتى اشتهر الطبرى فيها – الحديث . والفقه ، وقراءة القرآن . والتاريخ . ومات يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاث مئة . ودفن يوم الاحد بالعداة فى دار برحـــبة يعقوب ببغداد. وعلى الرغم من أنه لم يستعمل الخناء ليخفى شيبه . كـــان السواد فى شعر رأسه ولحيته كثيرا، إلى الخامسة والثمانين من عمره : إذ ولد فى ٢٢٥ هـــ . ولكن بعض العلماء يقول إنه دفن ليلا. خوفا من العامة . لأنه كان يـــتهم بالتشيع – شأن كثير من المؤرخين المشهورين . وأنكر ذلك الخطيب. مؤلف تـــاريخ بغـــداد الكبير : وقال : اجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم إلا الله. وصلى على قبره عدة شهور، ليلا ونهارا، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب.

Marfat.com

وســـنقول فورا شيئا عن دراساته : ويذكر بين تلاميذه أحمد بن كامل، الذى تابع مســـكويه دراسته التاريخية معه . وقد مكث أربعين سنة ، يكتب فى كل يوم منها أربعـــين ورقة . ويروى راوى ياقوت أن الطبرى قال لاصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة . فقالوا : هذا مما يفنى الاعمـــار قـــبل تمامـــه. فاختصـــره فىنحو ثلاثة آلاف ورقة ، أى العُشر. ثم قال : تنشـــطون للتاريخ العام من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحوا مما ذكره فى التفسير، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : إنا لله ،ماتت الهمم . فاختصره فى نحـــو مما اختصر التفسير. ونستطيع ان نتصور الوقت الذى يستغرقه المرء فى نسخ كـــتاب من أمثال هذين الكتابين من الخبر الذى ادعى فيه صاحبه أنه كتب التفسير كلـــه عـــن الطبرى إملاء : فاستغرق ذلك منه ثمانى ســـــنوات ، من ٢٨٣ إلى ٢٩٠ هـــــ . ويخبرنا أنه فرغ من تصنيف كتاب التاريخ ، ومن عرضه عليه ، فى يـــوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر ، سنة ثلاث وثلاثمئة ، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمائة .

ويعـــدد الراوية التالى المذكور مجموعة متنوعة من الكتب الأخرى للطبرى، أحدهـــا فى القراءات ، كتاب جليل فى ثمانى عشرة مجلدة إلا أنه كان بخطوط كبار، واخـــتار قراءة ، وإن لم يقرأ عليه إلا آحاد من الناس ، ولم يعرف من قرائهـــــا غير ثلاثة .

يـــلى ذلك قصة تتضوع منها رائحة المعجزات . جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبرى ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومحمد بن نصر المروزى ، ومحمد بن هـــارون الـــروياني ، بمصر . فأملوا وافتقروا ولم يبق عندهم ما يموّنهم ، وأضر بهم الحال . فاجتمعوا ليلة فى منزل كانوا يأوون إليه ، واتفقوا على أن يستهموا ، فمن

Marfat.com

خرجت عليه القرعة سأل الناس لأصحابه الطعام . فخرجت القرعة على محمد بن إســـحاق بن خزيمة ، فقال لاصحابه : أمهلونى حتى أتوضأ وأصلى صلاة الخِيَرة . فاندفع بالصلاة فإذا هم بالشموع وخصى من قبل والى مصر يدق عليهم . فأجابوه وفتحوا له الباب فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هذا . وأشاروا إليه . فأخرج صرة فيها خمسون دينارا ودفعها إليه ، وقال : أيكم محمد بن جرير ؟ فأشاروا إليه . فدفع إليه خمسين دينارا ، ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقيل : هذا . فدفع إليه مثـــلها ، ثم قال : وأيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة ؟ فقيل : هو ذا يصلى . فلما فرغ من صلاته دفع إليه صرة فيها خمسون دينارا . ثم قال : إن الامير كان قائلا ، فـــرأى فى الـــنوم خيالا أو طيفا يقول له : إن المحامد طووا كشحهم . فبعث بهذه الصرر، وهو يقسم عليكم إذا نفذت أن تبعثوا إليه ليزيدكم .

يلى ذلك بعض أخبار رواها ابن كامل ، الذى كان تلميذ الطبرى كما رأينا. جـــاء إلى المـــؤرخ ، ومعه ابنه الصغير ، فى التاسعة من عمره ، فوجد تحت مصلاه كـــتاب فـــردوس الحكمة لعلى بن ربن الطبرى، وهو فى الطب : فمد الزائر يده لينظره ، ففضل الطبرى ألا يفعل، ودفعه إلى الجارية. وقال : لَمَ لم تُسمعه منى شيئا ؟ قال : كرهنا صغره وقلة أدبه . فقال له : حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لى أبى فى الـــنوم أنـــى بـــين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معى مخلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه . فقال له المعبِّر : إنه إن كبر نصح فى دينه، وذبّ عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى على طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صغير .

وأول ما بدأ دراساته فى آمل من طبرستان حيث وُلد ، ثم بالرى . وكان من أساتذته محمد بن حميد الـــــرازى . « فيخرج إلينا فى الليل مرات ، ويسألنا عما

Marfat.com

كتبـــناه، ويقـــرؤه علينا » – ليتأكد من صحته . « وكنا نمضى إلى أحمد بن حماد الـــدولابى ، وكان فى قرية من قرى الرى بينها وبين الرى قطعة ، ثم نعدو كالجانين حـــتى نصـــير إلى ابـــن حميد فنلحق مجلسه » : فكتب عن ابن حميد فوق مئة ألف حديـــث ، ومـــنها ما كان فى كتاب محمد بن إسحاق، وعليه بنى تاريخه . ثم دخل الطـــبرى بغداد ، وكان فى نفسه أن يسمع من أحمد بن حنبل، فلم يتفق ذلك لموته قـــبيل دخوله إليهـــا . ولـــكن الطبرى أقام بالعاصمة بعض الوقت ، وكتب عن شيوخها، ثم انحدر إلى البصرة، مقيما فى واسط بعض الوقت راميا إلى حضور مجالس علمها .

ثم صـــار إلى الكوفة ، فكتب فيها عن أبى كريب محمد بن العلاء الهمذانى ، أحـــد الشيوخ . وعندما رغب الطلبة فى حضور مجلسه ، اطلع أبو كريب من كوة فى حـــائط منزله ، وقال : أيكم يحفظ ما كتب عنى ؟ فالتفت بعضهم إلى بعض ، ثم نظـــروا إلى الطبرى ، وقالوا : أنت تحفظ ما كتبت عنه ؟ قال : نعم . واستطاع أن يجـــتاز امتحان الشيخ الصارم ، وسمع منه أكثر من مئة ألف حديث أخرى . ثم عاد إلى بغـــداد ، وتفقـــه بها ، وأخذ فى علوم القرآن: ثم غرَّب ، وكتب فى طريقه من المشـــايخ بأجناد الشام ، ثم صار إلى الفسطاط فى سنة ثلاث وخمسين ومئتين. وكان أكـــرم العلماء بالفسطاط على بن سراج ؛ الذى وجد الطبرى فاضلا بارعا لا فى العـــلوم الدينية وحدها ، بل فى الشعر أيضا . واستطاع أن ينشد ديوان الطرماح ، وكـــان من يقوم به مفقودا فى البلد، وأن يمليه بغريبه . وبرز فى الفسطاط مؤسسا لمذهـــب مـــن مذاهب الفقهـــاء ، وكان ابتدأ على مذهب الشافعى: ولقى بعض الأتـــباع ، شـــأن غـــيره مـــن الفقهـــاء ، إذ لم تعتبر المذاهب الأربعة المذاهب الصحيحة وينفى غيرها إلا فى أواخر القرن الرابع .

Marfat.com

ويـــدون ابن كامل قصة سمعها من الطبرى ، متعلقة بتجاربه عند وصوله إلى الفسطاط، وتبين اختلاف اللهجات بين الاقطار التى تتكلم العربية . فقد حصل له بعـــض من اتخذهم من أصدقاء على دار ، وذكروا له مجموعة من الاشياء التى هو محتاج إليها : فكانت جميع الالفاظ التى استعملوها غير مألوفة منه بمعانيها المصرية . أخـــبر أنـــه محـــتاج إلى حمارين : فقال : وأما الحماران فان أبى وهب لى بضاعة أنا استعين بها فى طلب العلم : فان صرفتها فى ثمن حمارين ، فبأى شىء أطلب العلم ؟ ولكـــن الحمـــاران كانا أربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط ، لينام عليها من الـــبراغيث ، وكذلـــك كانت الاشياء الاخرى تعادل الحمارين رخصا وعدم قدرة على الاستغناء عنها .

وتـــبين قصـــة أخـــرى تـــروى عن مسلكه فى الفسطاط بعض الافتقار إلى الصـــراحة. فقد كان محاطا برجال من جميع الأنواع ، يمتحنونه فى الفروع المختلفة من المعرفة التى اشتهر بها . فجاءه يوما رجل فسأله عن شىء من العروض. ولم يكن الطـــبرى نشط له قبل ذلك ، ولكنه كره أن يعلن جهله به . فطلب إلى السائل أن يمهلـــه يوما، وفى الوقت نفسه اقترض مقالة الخليل بن أحمد ، مبتكر هذا العلم . وعندما كرر السائل زيارته ، كان الطبرى قد صار « عروضيا » .

ويـــبين خبر مروى عرضا فى حياة رجل آخر أن الطبرى لم يكن دائما كفؤا للشهرة التى حظى بها من حيث أنه يحفظ ذخائر كثيرة من العلم . ذلك الرجل هو القاضـــى أبو جعفر التنوخى المعروف بابن بهلول ، والمتوفى عام ٣١٨ هـــ . وكان أحد القضاة الذين رجع إليهم بشأن زندقة الحلاج . فقد قابل الطبرى فى جنازة فى بغـــداد ، دون أن يعرفه : فاشتبـــكا فى حوار وكشـــــفا كلاهما عن معرفة كبيرة بـــالأدب. وعندما عرف القاضى اسم محدثه ، الذى كان مشهورا – لا بالكتابة ،

Marfat.com

فيما يبدو ، بل بقوة الحفظ والاتساع فى صنوف العلم – أسف أن لم تأخذ المذاكرة مجـــرى آخر : وبعد مدة تقابلا فى مناسبة أخرى ، فانتهز القاضى الفرصة لاختبار الطـــبرى . فكلما ذكر قصيدة ، وطلب إلى المؤرخ أن ينشدها كاملة : حذف منها أبياتا كثيرة وتلعثم كثيرا : ولكن ابن بهلول استطاع فى كل مرة أن يملأ الثغرات ، فبان للحاضرين تقصير الطبرى، وسر ابن بهلول للنتيجة .

وعاد من الفسطاط إلى بغداد ، ومنها إلى موطنه طبرستان ، التى زارها ثانية عـــام ٢٩٠ هـــ . وعند عودته إلى بغداد بعد أولى هاتين الزيارتين اشتبك فى نزاع مع الحنابلة ، بسبب كلمة بدرت منه فى حق إمامهم اعتبروها إهـــــانة له . فرُمى بالمحابـــر ، وحُصبت داره بالحجارة ، حتى صار على بابه كالتل العظيم ، ثم رفعها الجند ، الذين كان على رأسهم نازوك ، الذى نعرفه من مسكويه . وعمل كتابا فى الاعـــتذار إليهـــم ، مدح فيه أحمد بن حنبل ، ولم يخرج كتابه الذى ناقش فيه آراء ذلـــك الـــرجل حـــتى مات . وليس من الواضح، كما رأينا ، أنه نجح فى مهادنة الحنابلة ، الذين كانوا عنصر فزع فى بغداد .

وكانت براعته فى النحو كافية لتكسب له إطراء ثعلب ، الذى كان الطبرى قـــد حضر مجالسه قبل أن يشتهر ، وعرف عن ثعلب أنه كان قليل الشهادة لاحد بالحذق فى علمه .

ويروى من مميزات الطبرى أنه كان يكره تفضيل أحد تلاميذه على سائرهم: فـــلو لم يســـتطع طـــالب الحضور ذات يوم ، أجّل الطبرى مجلسه إلى أن يستطيع الحضور .

Marfat.com

ويـــبدو أن الطبرى اشترى الكتب أيضا ، بالاضافة إلى رحلاته فى كثير من الأقطار لتحصيل العلم رواية . يروى وراق أن الطبرى التمس منه ، إذ عزم على تـــأليف رسالة فى القياس ، أن يجمع له ما أمكنه من الكتب فيه . فجمع له الوراق نيفا وثلاثين كتابا . فأقامت عنده مديدة ، ثم ردها وفيها علامات بحمرة .

ويخصـــص يـــاقوت بعـــض الصفحات لآراء الطبرى الدينية ، وكان شديدا متمسكا بالسنن ، وإن لم يكن من اليسير التوفيق بين بعضها وآراء السنة المتأخرين من بعض الوجوه . وكفّر الخوارج والروافض ، أى من لا يستطاع قبول أدلتهم . وتمســـك بأن لا وراثة بين أفراد المذاهب المختلفة فى الدين الواحد ، سواء أكانوا مســـلمين ، أم يهـــودا ، أم مسيحيين . وعند وفاته غفر لكل من عاداه ، إلا رجلا رمـــاه بـــبدعة – وكان يعتبرها إهانة لا تغتفر . وتشدد فى تمسكه بصحة الحديث الـــذى تـــبنى عليه الشيعة حق على فى الخلافة ، ولكنه كان شديد الاعجاب أيضا بالخلفاء الثلاثة الأولين . وقد اضطر إلى مغادرة طبرستان بعد زيارته الاخيرة ، لأن الرفض ظهر بها ، وخاف أن يجرى عليه ما يكرهه بسبب آرائه . وقد وجه سلطان البـــلدة إليه من يأتى بـــه ، ولكن صديقا أخبره فى الوقت المناسب فهرب : ولكن الصديق حصل فى أيديهم وجُلد .

ويقال إنه كان ذا كبرياء تمنعه من أخذ هدية لا يمكنه المكافأة عليها . ووجه إليـــه أبـــو الهـــيجاء بن حمدان ، الذى اضطلع بدور من أدوار البطولة عندما خلع المقـــتدر وأقـــيم القاهر مقامه ، ثلاثة آلاف دينار : فردها بدعوى أنه لا يقدر على المكافأة عنها . وفى مناسبة أخرى عندما وجه إليه الوزير هدية من المال ، وسأله إن لم يقبلها أن يفرقها فى أصحابه ممن يستحق، امتنع الطبرى من قبول الدراهم قائلا :

Marfat.com

هو أعرف بالناس إذا أراد ذلك . ومن جهة أخرى بعث هو نفسه هدايا إلى الوزير عندما قدم الحاج ، وجلبوا معهم مال ضيعته فى طبرستان .

وكـــانت الكـــتب الـــتى يفضلها المؤرخ ويجتهد بأصحابه أن يأخذوها ، لا التفســـير ولا التاريخ ، وإنما كتبه الفقهية : « الاختلاف » ، وهو أول ما صنف ، وكـــان فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ؛ و « تهذيب الآثار » ، فى الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاخبار ؛ ومقالة فقهية تسمى « البسيط » . وعند وفاته كـــان مشتغلا بمقالة كبيرة فى الادب، شبيهة فى خطتها بإحياء العلوم الذى أخرجه الغزالى من بعد .

ويصـــف ابـــن كـــامل ، الذى كان تلميذ الطبرى ، كما قد رأينا، مظهره الشخصى وعاداته ، وكان شديد العناية بنظافته : ويخبرنا أيضا كيف قسم الطبرى يومـــه : فكان يكتب من الظهر إلى العصر،كان يجلس للناس يقرئ ويُقرأ عليه إلى المغـــرب. ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه إلىٰ عشاء الآخرة . ثم يدخـــل منزله . كذلـــك يوجد جانب أخف من شخصيته ، وتروى بعض الأخبار التى تمثل فصاحته وفكاهته .

وقـــد اشـــتبك فى خصومة قوية مع رجل ، هو داود بن على الاصفهانى ، مؤسس المذهب الظاهرى : خصومة اتسمت مرارا بالخشونة . وجدير بالملاحظة أن مذهب هذا الرجل قُدِّر له أن ينال من الانتشار ما لم تنله آراء الطبرى البتة .

ولعـــل حكـــم الاجيال التى تلت على آثاره كان مفضلا لتفسيره وتاريخه ، ويـــبدو أنهما كليهما صورة أمينة للمادة التى جمعها فى رحلاته. وواضح أن ملكاته

Marfat.com

الادبية حرمته بعض خصائص المؤرخين : ولذلك كان حين اضطر إلى تناول شئون عصـــره ، معيـــبا ، ولم يعط صورة واضحة عن تطور الاحداث ، وحذف تفاصيل مهمة ، ولذلك ظهر القديرون من وزراء عهده وخلفائه فى صورة الظلال المعتمة . ونفعُـــه أكثر جدا عندما يكون أمامه مادة هيأها له السابقون . وإنا لنشك فيما إذا كان قادرا حقا على تأليف تاريخ يبلغ عشرة أضعاف تاريخه الموجود ، فالمحتمل إذن أن من الواجب علينا رفض تلك القصة واعتبارها خرافة لا أساس لها .

وإذ كـــان الغـــربيون يهـــتمون أشد الاهتمام بالتوسع الإسلامى عن طريق الفتوح ، فإن تلك النقطة ليست بارزة عند الطبرى للأسف . والمؤرخ الذى يتخذ مـــن الحـــروب الاجنبية موضوعا له ، مضطر إلى معرفة بعض الامور عن الجانب الآخر : حالة الأمة ، وأسماء قوادها وسياسييها وأعمالهم وما شابه ذلك . ويجب ألا يكـــون القيـــام بمثل هذا البحث خارجا عن نطاق الطبرى ، الذى ربما كان عاونه كثيرا على فهم التقدم الإسلامى فى فرنسا وتوقفه بانتصار شارل مارتل . ويظهر فى أواخـــر القـــرن الـــرابع مؤلف عانى كثيرا فى مثل هذا البحث ، وهو أبو الريحان الـــبيرونى ، ولكنه مؤلف وحيد . ولا شك أن الشيوخ الذين أخذ الطبرى عنهم ، والكـــتب الـــتى حصـــل عليها ، كانت أكثر عناية بالامور الداخلية منها بالشئون الاجنبية .

كـــان عمل عظماء المحدثين المعاصرين للطبرى يقوم على اختيار الصحيح من الاحاديث الكثيرة الشائعة حينئذ . وقد اختلفت « شروطهم » ، ولكنهم أجمعوا عـــلى تصديق عدد متوسط منها ، والرجوع إليه فى التشريع . ولعلنا نذهب إلى أن الطـــبرى قام فى التاريخ بعمل مشابه لما قام به البخارى ومسلم فى الحديث : اختيار المادة التاريخية الصحيحة من مجموعة المادة التى تقدمها كتب المدائنى وغيره : وأتبع ذلك عملا شاقا وخطرا إلى حد ما ، هو الاستمرار بالتدوين إلى عصره .

Marfat.com

وعـــلى الرغم من ضخامة تاريخ الطبرى نجد أنه نقله بعد موته الرواة ، كأنما هـــو روايـــة شفوية . فقد نقله إلى مسكويه ابن كامل : وروى من يسمى أحمد بن عـــبد الله الفـــرغانى ٣٢٧ – ٣٩٨ هـــ ، وكان أبوه صديقا للطبرى ، التاريخ والتفسير ، عن أبيه . وألف الأخير تاريخا خاصا به ، أكمله هذا الابن .

{ أبو حنيفة الدينورى }

واشتهر معاصر للطبرى فى التاريخ وعلوم أخرى أيضا ، وهو أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى . ويوجد بعض الشك فى تاريخ وفاته ، إذ تختلف الروايات بين عـــامى ٢٨٢ و ٢٩٠ هـــ . وأشهر كتاب له فى النبات : ولكنه اشتهر بالبلاغة أيضـــا ، وتروى مناقشة وقعت فى مجلس أبى سعيد السيرافى النحوى بصدد تفضيل بلاغة أبى حنيفة والجاحظ البصرى العظيم . وحاول أبو سعيد أن يحتم النقاش ، بأن جعل أبا حنيفة أدخل فى أساليب العرب ، والجاحظ ذا معان لاصقة بالنفس. وأعلن أبـــو حيان التوحيدى ، راوى هذه المناقشة ،أنه يضع ثلاثة من الكتاب فوق جميع من كتب : هم الجاحظ البصرى، وأبو زيد البلخى ، وأبو حنيفة الدينورى . ويقول عن الأخير: « جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكـــم ؛ وهـــذا كلامه فى الأنواء ، يدل على حظ وافر من علم النجوم ، وأسرار الفلك . فأما كتابه فى النبات فكلامه فيه ، فى عروض كلام أبدَى بدوى ، وعلى طباع أفصح عربى . ولقد قيل لى : إن له فى القـــرآن كتابا، يبلغ ثلاثة عشر مجلدا » . وقد أثار انتباه الموفق ، أخى المعتمد ، فرعاه . وكان لغويا كبيرا أيضا : ويروى خبر عن ورود المبرد الدينور ، حيث سأله مضيفه عيسى بن ماهان عن معنى كلمة غريبة فى الحديث . وإذ كان المبرد غير متأهب للسؤال ، ارتجل معنى للكلمة،

Marfat.com

وعـــندما سئل عن شاهد عليها ، انتحل بيتا من الرجز ، ثم أعلن حضور أبى حنيفة وقُـــدم له الســـؤال . فأكد أن شاهد المبرد منتحل، وأن للكلمة معنى يختلف كل الاختلاف عما قال المبرد . واضطر المبرد إلى الاعتراف بإصابة أبى حنيفة ، واعتذر بأنه أنف أن يرد من العراق، وذكره ما قد شاع ، ولا يعرف أول ما يسأل عنه .

وثـــبت كتبه الذى يرويه ياقوت عن الفهرست متنوع أشد التنوع : إذ تمثل فيه الجغرافية ، والنبات ، والرياضة ، واللغة ، والتاريخ الادبى ، كما يتمثل التاريخ الفعلى . وقد نشر مجلد يدعَى أنه كتابه فى الاخبار الطوال ، ويضم تخطيطا للتاريخ العـــام إلى عهـــد المعتصم . ويختلف عن الطبرى فى حذفه « الاسانيد » : فيطرد السرد ، مع إقحامه كثيرا من الاشعار .

وأينما ذكر المؤلف رواة ، كانوا الكلبى والهيثم بن عدى . ويسرد التاريخ ، كما قد رأينا ، بأسلوب الروائى ، فيورد الاحاديث الخاصة مطولة ويجعل الاحزاب تتـــبادل الاشعار : بل تنظم الرسائل شعرا ، فى الحقبة الحرجة عندما كان نصر بن ســـيار يحاول تحذير مروان الثانى من الخطر الذى يهدده من خراسان . ولا يبين عن كـــبير مقدرة على النقد: يروى (كما قد رأينا) أن من يسمى الكرمانى بعث إلى عمـــر بن إبراهيم ، من أبناء أبرهة بن الصباح آخر ملوك حمير ، يسأله نسخة من المعاهدة التى تمت فى الجاهلية بين اليمن وربيعة . فأجاب سؤاله ، وأرسل إليه نسخة مـــن المعاهدة يوردها المؤلف برمتها . وهى مدونة بالعربية الفصحى ، مسجوعة ، وتســـتهل بعبارة دالة على التوحيد . ولدينا فى نقوش مأرب نص من أبرهة هذا ، وهو مدون باللغة السبئية : ولكن الدينورى لم يخامره أى شك .

Marfat.com

وأيـــنمـــا اختـــلف هذا المؤلف مع الطبرى ، فالمحتمل وجوب تفضيل رواية الطـــبرى عادة . ويجدر بنا ملاحظة أنه عندما روى قيام العباسيين لم يشر إلى تنازل محمـــد بـــن الحنفية المفترَض ، الذى رأينا لاسباب أخرى أنه غير صحيح . وبرغم ذلـــك لا يمكـــن أن تقوم مقارنة حقة بين كتابه وكتاب الطبرى : فمن الواضح أن الـــتاريخ العـــام الـــذى لا يشغل غير ٤٠٠ صفحة يقوم على مقياس يختلف كل الاخـــتلاف عـــن مقياس الكتاب الضخم للرجل الآخر . ويبدو أن القول بأن هذا الكـــتاب ليس كتاب الاخبار الطوال الوارد فى ثبت الدينورى له وجاهته : إذ لا يتفق العنوان مع المحتويات .

{ أحمد بن أبى طاهر طيفور }

وعاصـــر الطبرى أيضا أحمد بن أبى طاهر ، المتوفى عام ٢٨٠ هـــ ، والذى رأى الضـــوء مجـــلد واحـــد يعالج عصر المأهون من كتابه الكبير فى تاريخ بغداد : خـــلفائها وأمرائها ، وأيامهم . وقد أتهم بالسرقة فى هذا المؤلف ، ولكن من المتعذر إثبات ذلك .

ويســـمى أبو هذا الرجل طيفور ، وكان من مرورو ذ . ويقال إنه كان يروى عـــن عمر بن شبة ، الراوية المشهور . وكان فى مستهل حياته مؤدب كُـــتَّاب . ويؤكـــد المؤلـــف الـــذى ينقل عنه ياقوت أنه لم ير ممن شهر بمثل ما شهر به من التصـــنيف للكـــتب وقـــول الشعر أكثر تصحيفا منه ، ولا أبلد علما ، ولا ألحن: واشتهر أيضا بسرقة أجزاء من شعر غيره . ويروى خبر لطيف عن حيلة احتال بها هـــو وصديق للحصول على مساعدة فى وقت اشتدت بهما الازمة فيه . إذ تظاهر

Marfat.com

ابن أبى طاهر بالموت ومضى صديقه إلى رجل عظيم يطلب مساعدته فى دفنه . فأتى العظـــيم ليرى الجثة ثم نقر أنفها : فضرط ابن أبى طاهر ، وفسر صديقه الامر بأن هـــذه بقيـــة مـــن روحه كرهت نكهته فخرجت من استه . ويبدو أنه عاش على المدائـــح: ويدون خبر وهب فيه ١٠٠ دينار لمدحه الوزير الحسن بن مخلد ، الذى يـــروى عـــنه التنوخى بعض الاخبار الغريبة . فأرجأ صاحب خزانة الوزير ، وكان اسمـــه رجاء ، المكافأة ، مدعيا أنه لم يؤمر بشىء . فكتب ابن أبى طاهر بعض أبيات يحـــث الوزير فيها أن يبادر بالجود ما دام مقتدرا ، فليس فى كل حال هو مقتدر : فضـــاعف له المكافـــأة . وثـــبت كتبه التالى عظيم الطول ، وأغلبه تراجم شعراء ومختـــارات مـــن دواوينهم : ويوجد أيضا بعض المقالات السياسية، ويبـــــدو أن بعضـــها كـــان عـــلى هيئة الروايات التاريخيـــــة ، ذلك اللون الذى ابتـــدأه اكســـينوفون Xenophon فى Cyrupaedia . ويصل أحد الاخبار بينه وبين المبرد ، الذى هجاه ، وهاجمه فى عنف .

ولا تـــلقى بقيـــة الاخبار فى ترجمة ياقوت لهذا الرجل أية أضواء على ألوان نشاطه الادبى . وتتألف من قطع من أهاجيه للوزراء وغيرهم من مشهورى عصره ، وكـــل مـــا نستطيع استنتاجه أنه تسلم مرتبا ما من خزانة الحكومة . وقد شكا إلى أحـــد الـــوزراء عندما تأخر هذا المرتب، وذُكـــر أن مثل هذه الشكوى تكشف افـــتقاره إلى الكـــرامة الشخصـــية ؛ ووعده إسماعيل بن بلبل ، الذى سمعنا عنه ، المساعدة ، ولكنه لم يمنحه إياها فعلا . ولم يأذن له وزير آخر بالدخول، وواضح أن مرتبه لم يكن من أجل الابحاث التاريخية ، وإنما من أجل شعره ، الذى لم يبق منه غير قطع ذكرها من ترجم له .

Marfat.com

{ البلاذرى }

ونـــال مـــؤرخ آخر فى هذا القرن شهرة مستفيضة بحق ، وهو أحمد بن يحيى البلاذرى ، المتوفى عام ٢٧٩ هـــ . وكان رجل بلاط ، يقتبس من المعلومـــــات ما يمنحه الخليفة المتوكل ، وعينه المعتز مربيا لابنه عبد الله .

وقـــد أكثر من الرحلة وأبعد بحثا وراء المعرفة ، وزار عدة مدن من الشام . ومن شيوخه فى بغداد أربعة مشهورون ، هم ابن أبى شيبة ، والقاسم بن ســـــلام أبو عبيد ، مؤلف غريب الحديث ، والمدائنى ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدى .

ويقال إنه منسوب إلى البلاذر ، وهو ثمر شربه جده ، فسبب له الوسوسة . واحـــترف إلى جـــانب أبحاثـــه فى الـــتاريخ فن الهجاء ، وصبه دون شفقة : على الاشـــراف. ويروى ياقوت خبرا ذا أهمية نقلا عن البلاذرى نفسه . لما أمر المتوكل إبراهـــيم بن العباس الصولى ، أن يكتب فيما كان أمر به من تأخير الخراج ، حتى يقـــع فى الخـــامس من حزيران ، ويقع استفتاح الخراج فيه ، كتب فى ذلك كتابه المعروف ، وأحسن فيه غاية الاحسان .فدخل عبيد الله بن يحيى على المتوكل فعرفه حضور إبراهيم بن العباس ، وإحضاره الكتاب معه . فأمر بالاذن له فدخل . وأمره بقـــراءة الكـــتاب فقـــرأه ، واستحسنه عبيد الله بن يحيى ، وكل من حضر . قال الـــبلاذرى : فدخلنى حسد له ، فقلت : فيه خطأ فقال المتوكل : فى هذا الكتاب الـــذى قرأه على بن إبراهيم خطأ ؟ قلت : نعم . قال : يا عبيد الله ، وقفت على ذلك ؟ قال : لا ، والله يا أمير المؤمنين ، ما وقفت فيه على خطأ . فأقبل إبراهيم بن العـــباس عـــلى الكتاب يتدبره ، فلم ير فيه شيئا فقال : يا أمير المؤمنين ، الخطأ لا

Marfat.com

يعرى منه الناس ، وتدبرت الكتاب خوفا من أن أكون قد أغفلت شيئا وقف عليه أحمد بن يحيى ، فلم أر ما أنكره ، فليعرفنا موضع الخطأ . فقال المتوكل: قل لنا ما هـــو هذا الخطأ الذى وقفت عليه فى هذا الكتاب ؟ فقلت : هو شىء لا يعرفه إلا عـــلى بن يحيى المنجم ، ومحمد بن موسى ، وذلك أنه أرخ الشهر الرومى بالليالى ، وأيام الروم قبل لياليها ، فهى لا تؤرخ بالليالى ، وإنما يؤرخ بالليالى الأشهر العربية، لأن لياليهـــا قبل أيامها بسبب الاهلة . فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، هذا ما لا علم لى به ، ولا أدعى فيه ما يدعى . قال : فغيّر تاريخه .

وبـــين أيدينا كتابان له فى التاريخ . أما « فتوح البلدان » فسجل للفتوح الإسلامية ، ويورد كل فصل منه عادة بعض تفاصيل تاريخ البلد المفتوح بعد فتحه. ويخـــبرنا أن التفاصيل مجموعة غالبا من علماء كل أقليم : فقد زار الاماكن وتعرف عـــلى الافكـــار الشائعة فيها ، المتعلقة باسم الفاتح ، وطريقة الفتح ، وما تلاه من أحـــداث مهمة . وتضم هذه التفاصيل غالبا توزع الاقاليم على القبائل ، وانتقال الســـكان مـــن مكان إلى آخر، وإنشاء الآثار العامة أو المرافق وإتمامها ، ومصدر الاسماء الخاصة والامور الاخرى التى كان تخليدها مهما . واستخدم ، بالإضافة إلى حصـــوله على هذه المعلومـــــات المحلية ، التى كانت جديرة بالثقة إلى مدى بعيد ولا شـــك ، استخدم آثار البحاثة السابقين ، كالواقدى عن طريق محمد بن سعد ، كاتـــبه ومؤلـــف الطبقات. وواضح أن بعض الشك يحوم أحيانا حول مسائل لها أهميـــتها ، وأن قـــدرا لا بأس به من الخطأ وقع فى التواريخ ، نتيجة الاعتماد على الـــرواية الشـــفهية . وبرغم ذلك يجب الاعتراف بأن قدر هذه المآخذ أقل مما كنا نـــتوقع . وأيـــنما روى البلاذرى روايات مختلفة عن الحوادث الواحدة ، كما هى الحال غالبا ، لم يكن الاختلاف كبيرا عادة . وينطبق ذلك على المواضع التى يورد

Marfat.com

فيها روايات مختلفة من المعاهدة الواحدة . فالمعانى واحدة على وجه التقريب ، وإن اختـــلفت العـــبارة ، وترتيب الجمل وبعض التفاصيل أحيانا نتيجة لتزوات ذاكرة الرواة .

وذهـــب آلورد Ahlwardt ، إلى أن مخطوطا فى برلين ، هو المجلد الحادى عشر ، من كتاب آخر لهذا المؤلف ، وكان ٤٠ مجلدا فى الاصل ، ويقال إنه توجد مجـــلدات أخـــرى مـــنه فى القســـطنطينية . وليس هذا الكتاب ، وهو « أنساب الاشراف » ، تاريخا مطردا ، وانما مجموعة من الروايات التى تعالج أحداثا خاصة : ويجـــب أن نستبدل كلمة « فتوح » فى الكتاب الآخر بكلمة « أمور » ، إذ أنها واردة فى عـــناوين المخطوطات . وأغلب مادة المجلد الحادى عشر الحـــروب بين عـــبد الله بـــن الـــزبير وعبد الملك ، والحروب بين خوارج ذلك العصر وخصوم الخلفاء. وقد دون المبرد فى كامله ، وهو كتاب لغوى أكثر منه تاريخى ، قدرا طيبا مـــن المـــادة نفسها. ويجمع البلاذرى فى هذا المقال الروايات التى شكلها عوانة ، والهيـــثم ، والكـــلبى ، وغيرهم : ويذكر الاشعار المتصلة بالمناسبات كثيرا جدا ، ويعـــترف أو يلاحظ أحيانا أن نسبة الاشعار إلى أصحابها خاطئة ، أو أنها تشير إلى مناســـبة أخرى . وقد اعتنى بتأريخ الحوادث ، ولكنه لا يوجد ترتيب مطرد نتيجة لطـــبيعة منهجه : إذ يرغمه تقسيم التاريخ إلى أحداث منفصلة إلى الرجوع والتقدم فى الزمن . وأهمية الكتاب تقوم على إبانته المرحلة الوسطى بين الرواية المنفصلة عند المدائـــنى والـــتاريخ المطـــرد الـــذى نجد مثالا له عند الطبرى . ويجمع البلاذرى الاحـــداث الواقعة فى حقبة واحدة معا ، ولكنه لا يزال يعالجها كأنها وحدات . أما فى كـــتاب الطبرى فقد اتصلت بالمجرى الرئيسى . وتفقد فى حقبة متأخرة ما هيتها تمامـــــا .

Marfat.com

{ ابن قتيبة }

ووصل إلينا كثير من كتب مؤلف من هذه الحقبة ، هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى استمرت حياته من ٢١٣ - ٢٧٠ هـ . وكان قاضى الدينور ، ويعرف عادة بابن قتيبة . وأشهر كتبه « أدب الكاتب » ، الذى شرحه كثيرون ، وهو رسالة ليرجع إليها كتاب الدواوين . وهى إحدى ثلاث رسائل تقليدية فى الفن المسمى بالأدب ، أما الآخران فبيان الجاحظ وكامل المبرد . ومادتها البراعة النحوية واللغوية : وقد صار الكاتب بعد بضعة قرون فى حاجة إلى معلومات متسعة متنوعة وضمت الرسالة المؤلفة ليرجع إليها عدة مجلدات .

ويسمى أحد كتب ابن قتيبة التاريخية « المعارف » ، وهو موجز من المعلومات التاريخية التى تتألف فى غالبها من القوائم ، والحقائق المتصلة بالنبى ، وجداول الانساب، وأسماء الفرق وما إلى ذلك . وفائدة الكتاب لا ينازع فيها ، ولكن قلما يستطاع تسميته تاريخا . ويختلف كتاب آخر يعزى إليه عن الكتاب السابق كل الاختلاف فى ظواهره . ذلك هو كتاب « الامامة والسياسة » ، وهو تاريخ للدولة الإسلامية منذ وفاة النبى إلى وفاة هارون الرشيد . وبالرغم من ذلك فتزييفه التاريخ أو جهله به من الوضوح بحيث لا يمكن أن يكون لابن قتيبة . فهو يجعل من السفاح والخليفة العباسى الأول أبا العباس شخصين مختلفين : ويفترض أن هارون الرشيد الخلف المباشر للمهدى ، الذى يقول إن ابنه عبد الله دس له السم . ولا يعرف له ابن بهذا الاسم . ويبدو أن المؤلف يكشف عن عناية خاصة بشئون اسبانيا، التى لا يعرف عنها اكثر مما يعرف الكتاب الشرقيون عادة ، وأنه من أتباع الإمام مالك الذى يصوره منتصرا على أتباع أبى حنيفة فى إحدى المناقشات. فلعله

Marfat.com

أذن قصـــاص أندلســـى . ولما كانت وفاة هارون الرشيد لا تعلم حقبة فى التاريخ الإســـلامى ، فان انتهاء كتابه بها ربما أفاد دليلا على تاريخه . ويبدو أنه لا يشير إلى أى حادث ، بعدها : والطريقة التى يعالج بها أيام هارون وقصة بنى برمك لا تختلف عـــن طـــريقة الطبرى : وواضح أن هالة الروائية أحاطت بهذه العائلة بعد نكبتها بوقـــت قصـــير تماما : بل وقع ذلك فى منتصف القرن الثالث. فلعلنا إذن لا نبعد كثيرا عن الصواب حين نعد هذا الكتاب من نتاج القرن الثالث .

وهذا الكتاب من أعظم التواريخ العربية جاذبية فى سهولة الاسلوب وجماله: بل إن مؤلفه أكثر من أبى حنيفة اصطباغا بالصبغة الروائية ، ويدعى إيراد الرسائل المتـــبادلة بين المشهورين الذين يروى أخبارهم ، وإيراد خطبهم ومحادثاتهم . وقلما يحـــيى رواياته بالاستشهاد بالشعر. ولعله كان يرى أن نهجه فى جعل القصة جذابة أكـــثر احتمالا للنجاح . وهو متعصب لعلى شأن كثير من المؤرخين ، قليل العطف عـــلى معاويـــة وخـــلفائه أو الاعجاب بهم : والحق إن علينا أن نرجع إلى فتوح الـــبلاذرى لـــنقدر خدماتهم للإسلام : إذ يمر الطبرى وغيره على جهود الخلفاء فى التنظـــيم والإدارة دون كبير عناية . ومن اليسير أن نعتذر لكتاب الامامة عن هذا الامـــر ، إذ أوضح أن موضوعه ليس التوسع الإسلامى ولا التنظيم الداخلى وإنما الطريقة التى حصل بها على الإمامة أو طولب بها : وإذ كانت الاحداث التالية لمقتل عثمان ذات الاهمية المطلقة فى تقرير هذا الامر ، فالمؤلف على حق حين يعالجها فى إطـــناب ينفى جميع الالوان الاخرى من التأريخ . والاستثناء الرئيسى الذى عقده هذا المؤلف هو استثناء غزو المغرب واسبانيا ، اللتين فتحتا فى أيام أبناء عبد الملك ، وكان بطل الغزو موسى بن نصير ، الذى لقيت خدماته كفرانا ونكرانا عظيمين من الخـــليفة سليمان . وتتمثل فى الكتاب بعض المواد الخرافية التى تقابلنا فى التواريخ

Marfat.com

المـــتأخرة لهذه الفتوح ، وإن بدا أنه يلتزم الحقائق فى هذه الاحداث . وقلما يذكر الـــرواة الذين استقى منهم أقواله : وجدير بالملاحظة أنه يقتبس من الهيثم بن عدى قـــائلا « وذكروا أن الهيثم بن عدى أخبرهم » ، مما يوحى بأن المؤلف عرف آثار هذا الجمّاعة عن طريق الرواية الشفوية لا النسخ . وحين يورد رسائل تكون عبارته « ذكـــروا » أن الرسالة التالية بعثها شخص إلى آخر ، و « ذكروا » أن الأخير ارسل الجواب التالى . ونجد ، كما قد رأينا ، كتابا آخرين يوردون الرسائل المدونة فى بعـــض المناسبات ، ولا تتفق هذه الرسائل إلا على المدى الذى توجبه الظروف الـــتى يقال إنها دونت فيها . وتحيى مثل هذه الوثائق ، والخطب ، والمحادثات ، كما هـــى واردة عـــندهم ، الـــتاريخ وتجعله حيا ولكنها بطبيعة الحال ليست مصدرا لـــلمعرفة . وهناك بعض الحقائق المستفيضة الشهرة وذات الاهمية الكبرى التى لا تزعـــزع : الاضطربات التى واجهت عليا حين بويع خليفة ، وأدت إلى ظهور قوة الامويـــين : انتقال مركز الحكومة من المدينة إلى العراق وإلى دمشق : ربما قلنا إن كـــل إنسان عرف أن النبى هاجر إلى المدينة واتخذها عاصمة لامبراطورية يرغب فى معـــرفة كيـــف نقلت عاصمة الإسلام إلى موضع آخر ، وكيف استطاعت الاسرة الـــتى ناصـــبت محمـــدا أشـــد العداء أن تتوارث خلافته . ويستطيع راوى هذه الاحداث، إذا شاء ، أن يحييها بجعل الفرق تتحدث وتتراسل إذا ما كانت متباعدة: ولكـــن المحادثـــات والرسائل كانت مستنبطة من الحقائق ، لا العكس . ولما كان المؤرخون المختلفون يعزون الوثيقة الواحدة إلى رجال مختلفين ، كما قد رأينا، فمن المحتمل أن الاشخاص الثانويين ، الذين يظهرون فى تلك الاخبار سعاة ، أو أصدقاء يستشـــارون ، أو موظفـــين فى مراكز ثانوية ، إنما ذكروا فى أغلب الاحيان تخمينا، وإن وجـــدت أحيانا لدى الاسر القديمة أخبار مأثورة بأن أحد الاجداد اشترك فى أحد هذه الاحداث المهمة .

Marfat.com

وقد عصر المؤلف خياله فى إيراد المجادلات الطويلة التى يشترك فيها كثيرون، كمـــا حدث عندما اقترح معاوية إعلان يزيد خليفة بعده وطلب البيعة له . فهناك مجموعة كاملة من الخطب ، معظمها فى جانبه ، وبعضها يعارض الاقتراح : ثم ذهب معاويـــة إلى المديـــنة ليعـــلن اقتراحه فيها وتكررت محادثاته مع الزعماء ، إذ يزور عائشـــة، التى كان خطابها له من الفصاحة بحيث خاف أن يجيبها كيلا يكشف عن ضعف موقفه .

وإن كان الكتاب الذى أمامنا كله من قلم واحد ، لم يكن من المستطاع تبرئة المؤلـــف مـــن تهمة الاهمال .فهو يذكر فى ختام المجلد الأول وصفا مطولا لواقعة الحـــرة، رفـــض أهل المدينة مبايعة يزيد بعد موت معاوية ، وإرسال مسلم بن عقبة لاخضـــاعها ، مع مختارات من الفظائع التى ارتكبت فى الايام الثلاثة التى استبيحت المديـــنة فيها . ولكننا حين ننتقل إلى المجلد الثانى نجد المؤلف فيها يبدو قد نسى كل هـــذه القصة المخيفة الطويلة ، ويورد تخطيطا آخر للأحداث نفسها دون أية إشارة عـــلى أنـــه روى هـــذه الأخبار كلها قبل . ولا يدهشنا مثل هذا العمل كثيرا فى الحالات التى ينقل فيها مؤلف فقرات من مؤلف سابق ، دون أن يعير محتوياتها كبير عناية : ولكنها مذهلة فيما هو مقصود به أن يكون أثرا فنيا قصدا واضحا .

وعلى الرغم من توقعنا أن مؤرخا يكتب فى ظل العباسيين كابن قتيبة الحقيقى يتعصـــب على الامويين ولا يكثر من الاشادة بهم ، فإن هذا المؤلف لا يمكن اتهامه بـــالهوى المفرط من هذا الجانب ، بل هو شديد الاعجاب بأميرين أمويين ، عمر بن عبد العزيز ، الذى يستثنيه حتى مؤلفو الشيعة مما يرمى به الامويون عامة ، إذ كان زاهـــدا ومعجبا بعلى ، ويروى المؤلف عنه بعض المعجزات الساذجة . ولكنه أشد حماســـة فى مدحـــه هشام بن عبد الملك ، الذى يعتبر أيامه أوج الخلافة : فقد جبى

Marfat.com

الخـــراج من جميع أنحاء العالم ، وأوجد حقبة من الامن والرخاء لم يعرف مثلها من قبل ، بهدوئه وصرامته فى الحق ، واستعداده الاصغاء إلى المطالب، والتنظيم الدقيق الذى جعله عارفا بكل ما يدور فى جميع أرجاء الخلافة. وكان هذان الإمامان وفقا لقـــول المؤلـــف شديدى الاختلاف فى الشخصية على الرغم من نجاحهما حكاما : فكـــان عمـــر مـــن الحرص على استعمال الاموال العامة بحيث جعل أفراد عائلته يلبسون المرقعات: وكان هشام من الاسراف بحيث لم يترك فى خزانته بعد موته ما يغطـــى نفقات جنازته . وسواء كانت الصور التى يرسمها المؤلف صادقة أو كاذبة ، فـــإن أوصافه للخلفاء المستقلين تترك تأثيرا واضحا وحيا ، لا يمكن الحصول على مثله من رواية الطبرى الجافة .

{ اليعقوبى }

أمـــا الكاتب المعروف باليعقوبى ، أحمد بن إسحاق بن جعفر، فمؤرخ على نطـــاق ضيق ، ولكن أعظم جدا. وليس لدى ياقوت غير أسطر قلائل عنه ، ذكر فيها ملاحظة وردت فى كتاب تاريخى لمحمد بن يوسف الكندى، نصت على أنه توفى عـــام ٢٨٤ هـــ . وهو من أسرة كتاب ، وقد أكثر من الرحلة وأبعد، وألف كتابا فى الجغرافية ضمه دى غويه De Goye إلى مكتبة الجغرافيه . ويتبع كتابه التاريخى خطة لابد أنها احتاجت إلى قسط طيب من البحث لتحقيقها . فيورد تفاصيل فلكية فى مـــبدأ كـــل عهد ، ليستطيع الخبراء أن يروا كيف تبع مجرى الاحداث أحوال الكواكـــب فى بـــزوغها . ويسجل فى ختام كل عهد أسماء الرجال الذين كان لهم أعظـــم الـــنفوذ مع الخلفاء ، وأمراء الحج فى كل سنة، وقواد الحملات ، والقضاة المشهورين . وقلما يذكر مؤرخين قدماء فى حقبة الخلافة؛ وكلما اقترب من عصره ذكـــر من حين لآخر أشخاصا استقى منهم المعلومات. ومعلوماته عن العهد الذى

Marfat.com

عاش فيه غاية فى الاخلال، وقاصرة على الهيكل المجرد ؛ ولكنه أكثر علما بالعهدين الامـــوى والعباســـى الاول . ويورد قدرا كبيرا من الرسائل والخطب ، التى دون بعضـــها غـــيره من المؤرخين ؛ ويصف الخطب أحيانا بالشهرة . والمرجح أن هذا الصـــنف تاريخى . وهو عظيم الاعجاب بعلى وعميق الاهتمام بالأئمة من أبنائه ؛ ويفـــرد صفحات كثيرة للحكم والمواعظ المنسوبة إليهم . ولما كان يصف مذهب المعـــتزلة بالـــتوحيد ، فقد نستنتج أن هواه كان مع تلك الفرقة . إذ إن ذلك هو اللقب الذى أطلقوه على أنفسهم . ويبدوأنه لم يشاركهم الشك المرتبط بمذهبهم ، حيـــث يســـجل وقوع كثير من المعجزات . وواضح أن عنايته بالاخلاق كبيرة . فيورد نصائح الخليفة المنصور لابنه عند موته برمتها ، وهى نصائح بالتقوى والورع والخير ، وإن بدا هذا الخليفة من تاريخه من أعظم الخلفاء الذين تولوا الحكم إغفالا للحق .

ومـــن المستطاع الرجوع إلى معلوماته بين حين لآخر لتكملة أقوال الطبرى ، ولكنها من القلة بحيث لا تقدم خدمة كبيرة من هذا الجانب . ومن المستطاع اعتبار تاريخـــه موجزا جادا فى التاريخ الوطنى مدونا للطلبة ، الذين ليس لديهم الوقت أو الرغـــبة لمتابعة الدراسة فى عمق شديد . ويشبه ترتيبه المادة طبقا للعهود – بخلاف تـــرتيب الطـــبرى عـــلى السنين – الترتيب المتبع فى الكتب الحديثة ذات الطبيعة المشابهة . ويجعل النطاق المحدد الذى منحه لنفسه وصفه للحوادث غامضا ، إذ قلما يتســـع المجـــال أمامه لتفسير عالمها ، ولم يكن لديه البراعة العظيمة فى اختيار تلك الاعمال الكبيرة للدلالة على الشخصية فى رواياته .

وعـــلى الرغم من أن الطبرى أدى لنا خدمة نبيلة بجمع الروايات التى ألفها أسلافه وترتيبها على السنين ، ومحاولة الوصول بالتاريخ إلى عصره ، لا يسد كتابه

Marfat.com

تماما الحاجة إلى الوثائق الرسمية والمعاصرة فى الحقبة السابقة . ونمثل لذلك بقصة قيام العباسيين . يروى لنا الطبرى كيف انتقلت المطالبة بالخلافة من الحسين بعد وفاته إلى محمد بن الحنيفة، الذى نقلها إلى مجموعة الراغبين فيها ، الذين نجح السفاح أخيرا من بينهم . ولكنه يدعى أيضا إيراد رسالة الدعاية التى دافع المنصور فيها عن حقه : وليس فى هذه الرسالة شىء عن ابن الحنفية : وإنما يطالب المنصور بالخلافة على أساس أنه من يمثل عم النبى المؤمن ، وتلك هى المناقشة التى لم يملّ ما دحو العباسيين إيرادها البتة . ومع ذلك فمؤكد أن المنصور كان فى مناقشاته مع أبناء على يصير مالكا لسلاح قوى بانتقال الدعوى من على إلى ابن الحنفية ومن هذا إلى أحد العباسيين . ويبدو إذن أن المحتمل أن هذه النظرية عن انتقال الدعوى إنما ظهرت بعد مجادلات المنصور ببعض الوقت ، ردا على العلويين، الذين كانوا دائمى المطالبة بالخلافة . ولم يتنبه الطبرى إلى التناقض فى هذه الحالة وبعض الحالات الاخرى ، على حين كان المتوقع أن يلاحظه بحكم مرانه فى القضاء.

Marfat.com

الفصل السابع

مؤرخو القرن الرابع

{ مسكويه }

يصـــل الادب العـــربي الـــتاريخي مستواه الاعلى فى القرن الذى شاهد قيام البويهيين . ويشغلنا مؤلفان خاصة : مسكويه ومحسن التنوخى. وكان أولهما تلميذا لكـــتاب الطبرى الذى سمعه من ابن كامل الذى كان المصدر الرئيسى لترجمة حياة الطبرى التى ترجمت فى المحاضرة الأخيرة . وكان إلى عهده جَمّاعة يستفيد من المواد التى يمده بها الطبرى وثابت بن سنان خاصة . وحين يصل بتاريخه إلى عهده ، يخبرنا أنـــه حصـــل على معلوماته بصفة رئيسية من رجلين بارزين ، أهل لاعطائها، وهما المهـــلبى أبو محمد الحسن ، وزير معز الدولة ،وأبو الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة، وكان المؤرخ أمين مكتبة الوزير الأخير . وقـــد التحق هو نفسه بعد بخدمة عضـــد الدولـــة ، أعظم البويهيين ، وقد صار تناوله للحوادث بعد ذلك غامضا . وهـــناك مـــا يدعو إلى الظن بأنه استعمله ابن عضد الدولة وخلفه بهـــاء الدولة ، وتجعله بعض الاخبار على صلة وثيقة بابن عباد ، وزير فخر الدولة المشهور .

وليس من الواضح ما إذا كان مسكويه نفسه هو الذى انتقل من المجوسية إلى الإســـلام ، أو أن الـــذى اتخذ تلك الخطوة أبوه ، الذى يدعوه عبد الله وهو اسم يطلق غالبا بمعنى « إنسان » على وجه التقريب . وكانت المهارة فى اللغة الفارسية صـــارت أمـــرا له أهميـــته حـــين اتخذها حاكم بغداد لغته الرسمية ، كما هى حال

Marfat.com

البويهيين الاولين . وكان مسكويه من الكفاية فى معرفة البهلوية بحيث ترجم كتابا فى الاخلاق من تلك اللغة إلى العربية . وكان يجيد اللغة العربية أيضا ، ويخبرنا أن أشـــعاره حـــازت استحســـان ابن العميد الناقد الكفء . كذلك تدعم الشواهد المعاصرة اشتهاره بالنظم .

وكـــل مـــن يتقدم من دراسة الطبرى إلى دراسة مسكويه يجد أن مؤهلات الأخـــير لتأليف التاريخ أعظم جدا من مؤهلات سلفه . وكانت لديه ميزة كبيرة فى أخـــبار عصـــره مـــن معرفته الشخصية بالرجال المشهورين : إذ كان قادرا على الحصـــول على المعلومات من مصادرها الاصلية . أضف إلى ذلك ، أنه كان عارفا بمـــناهج الإدارة والحـــروب فى عصره مما يسر له وصف الاحداث وصف عارف والحكم على الاعمال حكم واقف على دقائقها ، بحكم تقلده مركزا ، وإن لم يكن ســـاميا جـــدا ، فى بـــلاط الـــبويهين . وبيـــنما نجد الطبرى مقلا فيما يذكره عن اقتصاديات الخلافة : مصادر الخراج وطرقه وما أشبه ، نجد مسكويه يفيض ويدقق ويوضـــح فى تلك المسائل . وتفوق تعليقات مسكويه على الشئون العسكرية، مثل أســـباب هـــزيمة المهلبى فى القضاء على الثورة فى المستنقعات ، أو أخطاء بختيار فى حـــربه مع عضد الدولة ، الوصف المطول الذى أورده الطبرى عن حرب الموفق فى المنطقة نفسها تفوقا كبيرا ، ولا نعرف شيئا من أسباب النجاح أو الفشل .

ويـــنفرد مســـكويه عن غيره بعدم تحفظه فى أحكامه ، إلى جانب تخلصه من معظـــم صـــور التحيز . وعلى الرغم من خدمته البويهيين ، لايخفى جرائمهم ، بل يقسو فى أحكامه عليهم أحيانا قسوة شديدة . فيصور رأس الاسرة ، عماد الدولة ، مغامـــرا لا مـــبادئ له . ويلوم معز الدولة ، سيد المهلبى ، أعنف لوم للخيانة التى اســـتهل بهـــا حياته : ويعترف لعضد الدولة ببعض الفضائل وكثير من المواهب ،

Marfat.com

ويعـــزو نجاحه فى الحكم إلى تدريب ابن العميد إلى درجة كبيرة ، ولا يخفى أطماع عضد الدولة الزائدة ، وما كان مستطيعا أن يقول فى تلخيص حياته أكثر مما قاله فى اعتبار جميل ما فعل ، نأمل أن يغفر الله له . ومن الامور المهمة أن تقارن بين الموجز الحكيم لحياة عضد الدولة ، الذى ينتهى به تاريخه ، وبين المديح المطنب المبالغ الذى يخصصه الروذبارى ، الذى عاش فى ظل السلاجقة ، لهذا الشخص .

ومســـكويه قـــليل الميول الدينية جدا، بخلاف الطبرى ، الذى كان متكلما وفقيها . ومن الممكن أن تقرأ مجلداته دون أن تعرف – سوى فى فقرة واحدة – أن مؤلفه مسلم . ولعلنا نتوقع أن الحماس الدينى انتشر كالنار فى الهشيم مدة من هذا القرن : المدة عندما كان الامبراطور البيزنطى نقفور **Nicephorus** يعيد فتح المدن والاقالـــيم ، بســـبب ضعف الخلافة . وكان بطل الحروب مع المسيحيين فى ذلك الوقـــت سيف الدولة ، الذى احتل بغداد مرة ، عندما كان على رأس قوات أخيه ناصـــر الدولـــة : وقد خُلدت شجاعته فى قتال البيزنطيين فى شعر المتنبى . ويظهر ســـيف الدولـــة فى وصـــف مسكويه شخصا ذا مقدرة جد متوسطة ، دل فى عدة مواطن على أنه قائد غير كفء . ويعترف صراحة بأنه منى بهزائم خطيرة كثيرة فى حروبه مع البيزنطيين . وأعظم ما يسره من عضد الدولة سماحته المتسعة الآفاق أمام الجماعات المختلفة الاديان ، مما كان سببا فى انتشار الامن والرخاء .

ولعـــل مسكويه كان ميالا إلى إصدار الاحكام السيئة على الاشخاص الذين يـــدون حيـــاتهم . فروايته فى معظمها رواية للطمع ، والتآمر ، والخيانة ، مع سمات قليلة تكفر عن ذلك . بل يتهم الوزير الفاضل ، على بن عيسى ، بالطمع والرغبة فى احـــتكار الإدارة : ولا يمنعه إعجابه بالمهلبى من تدوينه إفراطه فى ابتزاز الاموال من أجل قصر معز الدولة . واضطر لتبرير عنوانه « تجـــارب الامم » أن يدون

Marfat.com

الفضـــائح التى تعتبر من جهة أخرى مفسدة للأخلاق : الحيل التى خُلع أو عين بها الوزراء ، والطـــــــرق الوضيعة التى أغرى الرجال بواسطتها على خيانة سادتهم أو أقاربهم ، المجال الذى شغلته الاوهام والغباء فى الشئون المهمة من الدولة . ولعله يدافع عن إلحاحه على تدوين هذه الامور بالحاجة إلى تعليم رجال الدولة .

وبالـــرغم مـــن أن مسكويه لم يكن الكاتب الذى يرمى إلى البلاغة، كالعتبى وعماد الدين فيما بعد ، يكشف عن مقدرة كبيرة على تصوير الشخصيات ورواية المـــناظر المفزعة. فمن اليسير تمييز الاشخاص الكثيرين الذين برزوا إلى المقدمة فى الاعمال التى خضعت الخلافة بواسطتها لسيادة المغامرين الاجانب ، وفى الحقبة التى أعقبـــتها، وتلصق ملامحهم بالذاكرة . وقد نتخذ من أعمال البريديين ، مع كـــون أبى عـــبيد الله أبـــرز شخصـــية فى الثالوث ، مثالا من الحقبة الاولى . ويؤخذ على مسكويه أنه عزا إلى المقتدر الضعيف المتقلب إفلاس الخلافة وانقسام الامبراطورية: ولكـــن لا يتضح خطؤه حين ننظر إلى المثال القائم أمامه فيما قام به المعتضد القوى من أجل استعادة قوتهما كليهما بعد حقبة الفوضى الطويلة التى تلت وفاة المتوكل .

وقـــد أدخـــل فى روايته عمدا أو غير عامد مجموعة من المناظر المفزعة ، التى ليس من السهل نسيانها إذا ما قرئت مرة ، مثل محاكمة الحلاج ، ووفاة ابن الفرات وابنه محسن ، وإخلاص أبى الهيجاء الحمدانى للقاهر عندما نصب على عرش المقتدر أولا ، وحبس الوزير ابن مقلة ووفاته .

وإذا كـــان مسكويه طبيبا حقا ، فإنه سمح بقليل من آثار تلك المهنة بالظهور فى كـــتابه : ويـــبدو أنـــه لا يكشف عن أية معرفة خاصة بالدقائق الطبية إلا مرة واحـــدة. ويؤكد أبو حيان أنه أضاع وقته ومادته فى دراسة الكيمياء : ويبدو أن

Marfat.com

كـــتابه ليس به أى أثر لذلك . وقد علق بعض الاهمية على الفلك شأن غيره من عـــلماء عصره : فيفسر نكبة جماعة من الامراء البارزين فى وقت متقارب من عام ٣٥٦ هـــ بـــتخمين فـــلكى : ولكن الفلك أقل بروزا جدا فى الجزء الذى حُقّق وتـــرجم مـــن تاريخه منه فى القطعة الباقية من تاريخ هلال ، الذى يورد خبرا غير عادى عن تنبؤ ناجح .

ويكشـــف مسكويه على العموم عن شكه فى غير الطبيعى ، وهو شك شبيه كـــل الشبه بشك أيامنا : وعندما يروى حالة حلم صادق رآه ركن الدولة وتحقق بعـــد تمامـــا ، اعتذر عن روايته ؛ وإنما برر روايته مثل هذا الخبر الثقة الكبيرة التى يتمـــتع بهـــا راويه ابن العميد ، وشهرته المستفيضة بالفلسفة . وواضح فى روايته محاكمـــة الحـــلاج الصوفى ووفاته أنه يعتبره مخادعا وضيعا : وبرغم ذلك يبدو أنه يخطـــىء الوزير حامد بن العباس لحثه على قتله ، وإن بدا أن حامدا إنما كان يدفعه إيمان صادق بأن أمثال تلك الدعاوى التى يطلقها الحجاج خطيرة على الامبراطورية.

والطـــبقة الـــتى انـــتمى إليها مسكويه ، وكان عطوفا على مصالحها بصفة رئيســـية ، هى طبقة الكتاب ، الذين كان يرى أن لهم الحق فى تولى الوزارة ، لأن المؤهـــلات الحقة لذلك المنصب لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال المران الذى تحتاج إليه مهنتهم . وليسوا عارفين بالأسلوب الملائم لتدوين أوراق الدولة حسب، بـــل هـــم عـــارفون بالتفاصـــيل الجغرافية والاحصائية المحتاج إليها للتنظيم المالى للامبراطورية. ولذلك يشعر بالألم المر حين يَرْقى الوزارة أبو طاهر بن بقية ، الذى بـــدأ حياته موظفا فى المطابخ الملكية، ولكنه رقى إلى أسمى مركز بكفاءته . وبرغم ذلـــك تصور روايته ابن بقية هذا ، عند مقابلته ببختيار ، رجل شجاعة ، ونجدة ، وحزم .

Marfat.com

ويذكر مسكويه أحيانا رواته ، وهم عادة من قد نسميهم الموظفين الدائمين فى الدواوين ، أو على أية حال الاشخاص الذين كانوا فى خدمة الوزراء فاستطاعوا الوقوف على أحاديث البلاط ، حيث تذاع عدة أسرار ، وإن لم تكن دائما موثوقة. ويؤكد أبو شجاع أنه نقل تاريخ البويهيين ، الذى ألفه أبو إسحاق إبراهيم الكاتب، وسماه « التاجى » وفقا للقب عضد الدولة « تاج الملة » ، نقلا حرفيا على وجه التقريب . فإن كان الأمر كذلك . فالجدير بالملاحظة أن مسكويه لم يعترف فى أى مكان بهذا الجميل ، كما يفعل حيال مؤرخ آخر من الفرقة نفسها ، وهو ثابت بن سنان . وليست قطع التاجى المحفوظة لدى العتبى والثعالبى بكافية لتمكيننا من معرفة ما إذا كان توكيد أبى شجاع قريبا من الحقائق أولا . ويتوقع المرء أن يكون أسلوب إبراهيم الصابى أكثر صناعة أدبية من أسلوب مسكويه ، البسيط غاية البساطة فى جميع أنحاء الكتاب .

وإذا كان الخبر القائل أن إبراهيم وصف تاريخه بأنه مجموعة من الأباطيل صادقا ، ولذلك كاد يفتك به عضد الدولة ، فإن ذلك يلقى ظلالا خطيرة من الشك على مادونه مسكويه عن مبتدأ أمر البويهيين . وقلما تثير تلك الرواية الشك ، لأنها بعيدة عن محاولة استرضاء الاسرة ، التى لا تقول شيئا عن رأسها بويه. ويورد المؤلفون المتأخرون الحلم الحتمى الذى بشر هذا الرجل بواسطته بالشهرة التى سيتمتع بها أبناؤه . ويصور عماد الدولة ، المؤسس الحقيقى لمجد الاسرة ، بارع العمل والتفكير ، ولكن مغامرا غير مراع للحقوق . ويوحى الخبر القائل بأنه هزم جيشا للخلافة مؤلفا من ١٠,٠٠٠ رجل ، على حين لم يكن معه إلا ٣٠٠ رجل بالشك فى الارقام ، ولكن رواية مسكويه تفسر السهولة التى استطاع بها عماد الدولة أن يجمع جيشا حوله : فلا شىء ينجح كالنجاح . ويبدو

Marfat.com

أن المـــرجح أن أخبار الحظ غير العادى الذى يسر لعماد الدولة جمع ثروة كاذبة : فإن ادعاء اكتشاف ثروات مخبوءة أمر تظاهر به كثيرا الملوك الراغبون فى التهرب مـــن تشويه السمعة المرتبط بجمع المال عن طريق ابتزازه . ويقال إن عضد الدولة نفسه راجع رواية إبراهيم قبل نشرها ، ونحن لا نعرف إلى أى مدى كان يرغب فى الاشادة بأقاربه ، وإن كنا نعرفه حاكما قويا طموعا مغفلا للحقوق . ويلقى أبوه ركن الدولة من مسكويه أجمل ما قال : ولكن يبدو من الرواية أن العلاقة بين عضد الدولة وأبيه كانت جافة إلى درجة الانقطاع ، بسبب إخلاص ركن الدولة لذكرى أخيـــه معز الدولة ، الذى أراد عضد الدولة أن يعزل ابنه بختيار عن عرشه ، كما فعـــل فـــيما بعد . وواضح أن الحيلة التى نظمت بها مقابلة بين الأب والابن دون الاساءة إلى كرامة أيهما رواها مسكويه عن أحد أفراد بنى العميـــــد .

{ ثابت بن سنان الصابى }

ولاشـــك أن مرجعه الرئيسى فى الجزء السابق على ما يدعى فيه الرواية عن الـــوزراء الذين خدمهم هو تاريخ ثابت بن سنـــــان ، المتوفى عام ٣٦٥ هـــ ، والذى امتد تاريخه من مبدأ عهد المقتدر إلى سنة ٣٦١ هـــ . ويذكره مسكويه بين حين وآخر لتجاربه الشخصية : فقد اطلع على كثير من أسرار الدولة لكونه طبيب الـــبلاط . وقد سأله بجكم المستولى على السلطة فى بغداد النصيحة فى كيفية ضبط الـــنفس: فنصح هذا الشخص العجيب بتأخير العقاب ليفتر غضبه . وحضر الوزير ابن مقلة حين بترت يده . ويورد مسكويه منظرا مفزعا لذلك . وكان هذا المؤلف من الصابئة ، الذين يحسن بنا أن نعرف المزيد عنهم : وقد أنتجوا عدة مشهورين : عـــلماء وأطباء وكتابا . وكان هلال ، الذى أكمل تاريخ ثابت من حيث أنهاه ،

Marfat.com

والـــذى توجد قطعة من تاريخه ، أول من اعتنق الإسلام من عائلته . وهذا الطبيب فى البلاط راوية بارع لشئون عصره ، مثل أسرة بختيشوع المشهورة : وكان الرواة الآخـــرون الذيـــن اســـتطاع أن يرجع إليهم ورجع إليهم مسكويه كتابا أو رجالا اتصلوا بمن كانوا وراء المناظر ، وعلى علم بالدوافع الخفية، وغير كارهين لكشف اللثـــــــام عنهم .

{ محمد بن يحيى الصولى }

ورجع مسكويه إلى مرجع آخر هو كتاب لايزال موجودا، كتاب « الورقة » لمحمـــد بن يحيى الصولى ، الذى كان كالبلاذرى رفيق عدة خلفاء ونديمهم ، وتوفى عـــام ٣٣٦ هـــ ، وكان لاعبا مشهورا بالشطرنج ، كان لعبه فى قول أحد هؤلاء الخـــلفاء أحسن من أى منظر يمكن تخيله . وبلغت براعته فى تلك اللعبة من العظمة بحيث قيل إنه هو الذى وضعها ! ولسوء الحظ أن ترجمة ياقوت له مخلة جـــــدا ، ولكنه أتيحت له فرص قيمة لفهم أسرار الإدارة ، والمؤامرات التى كانت تحـــــاك دائما لخلع الوزراء والولاة ، بحكم صلته بالخلفاء . وضمت آثاره الادبية بالاضافة إلى مذكراته المسماة الورقة قوائم بالشعراء والمشهورين ، وتاريخا للوزراء يذكر بين حين وآخر ، وتاريخا للقرامطة ، لعله كانت له قيمته، إذ أن جميع الاخبار التى لدينا عن هذه الفرقة العجيبة والمرعبة من العداء لهم بحيث أن معرفتنا بهم مخلة وتحتاج إلى مـــا يكملها . بل لم يستطع الطبرى ، الذى شاهد مبدأ الحركة ، أن يعطينا أكثر من تخميـــنات بصدد أصل الاسم . ومعنى الفعل فى اللغة العربية اليهودية الشائعة فى ذلـــك الوقـــت « ثـــار » ، ولكـــن مـــن الواضح أن هذا الفعل مشتق من اسم الفرقـــــــة .

Marfat.com

{ محسن بن على التنوخى }

ولم يكن محسن بن على التنوخى فارسى الأصل مثل مسكويه ، وإنما كان من قبيـــلة عـــربية خالصـــة ، هى تنوخ ، التى أنجبت فى القرن التالى أبا العلاء المعرى المشهور . ويذكر جده فى خبر مروى فى النشوار : احتل البيزنطيون ، فى اثناء فتنة الزنج ، انطاكية ، التى كانت تقيم فيها العائلة ، ثم استعادها المعتضد ، الذى أقسم أن يهدم سورها . فذعر أهل البلدة لهذا العمل ، وأرسلوا وفدا ، برئاسة التنوخى، ليلـــتمس من الخليفة ألا ينفذ هذا العمل الخطير . ولكن الخليفة، الذى أقسم على هدمـــه ، لم يجد مخلصا : وكان المخلص ، الذى اقترحه التنوخى وقبله الخليفة ، أن تعمل الفعلة فى هدمه يوما واحدا فقط ، وأن يأذن الخليفة لجميع الأقوياء من رجال المدينة فى الاشتغال بإصلاحه بعد ذلك [1] .

وغادر ابن هذا الرجل ، واسمه على ، ومولده فى سنة ٢٧٨هـــ ، انطاكية فى شـــبابه ، إلى بغـــداد ، ودرس الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وولى القضاء فى عدة مـــناطق مـــن العراق : وكاد يصير قاضى القضاة فى بغداد نفسها . وقد استخدمه المغامـــرون الذين استولوا على السلطة فى ذلك العصر فى السفارات أو المناسبات الاخرى التى يحتاج فيها إلى من يوثق به ، شأن غيره من كبار الموظفين .

---

(١) كـــذا روى المؤلف هذا الخبر ، ولكن التنوخى ذكر أن سبب قسم الخليفة كان خروج وصـــيف الخادم فى طرسوس ، واحتماءه بسورها ، كما احتمى بهذه الاسوار غيره من الخارجين على الخلافة . (نشوار المحاضرة ٢٢٧) – المترجم .

Marfat.com

ويشـــاد بـــبراعته فى مجموعة متنوعة من الاوصاف، أهمها المقدرة الشعرية ؛ وعندما فقد مركزه فى بغداد ، لجأ إلى سيف الدولة ، ومدحه بالأشعار : فسُر سيف الدولـــة ، الـــذى لا يـــنازع فى حسن تذوقه الشعر ، من إطرائه إلى درجة جعلته يســـتخدم نفـــوذه فى إرجـــــاعه إلى منصبه . وكان حفيده على بن محسن رجلا مشهورا أيضا ، فهو أحد مؤدبى الخطيب البغدادى . ولكن محسن بن على ، الذى عـــاش فى المدة بين عامى ٣٢٩ - ٣٨٤ هـــ ، ذو شهرة أخلد من شهرتهما : وقد ولـــد فى البصرة وتوفى فى بغداد. وكان مدة قاضيا نائبا لابن أبى الشوارب قاضى القضاة ، ثم ولى القضاء ، فى مدن مختلفة ، مجتمعة ومنفصلة ، من الجزيرة وفارس . ويديـــن بترقيه للوزير المهلبى ، الذى مثل مع التنوخى منظرا خاصا من مناظر الود والالفة ، ليؤثر فى قاضى القضاة ، الذى تأثر فى غباء « وكاد يحملنى على رأسه ». وأحـــبه عضد الدولة ، وواضح أنه أعجب بشعره ، وطلب إليه أن ينشده إياه فى مجالســـه . وفقد عطف الامير البويهى عندما كان فى همذان ، وعندما زار الصاحب ابـــن عباد ، وزير أخيه ، الأمير ، فأراد أن يقبض على الصاحب ، واتهم التنوخى بســـماع هـــذا الســـر وإذاعته ، فخابت الخطة . ويروى الخبر ، الذى ينكر فيه التـــنوخى التهمة ، ويحاول أن ينتقم من متهميه ، فى شىء من الطول الممل ، ولكنه يـــروى بطريقة تلقى ضوءا أليما على أخلاق العصر . واعترف التنوخى بأنه أخذ بعض الهدايا اللطيفة من الصاحب ، ولكنه عفا عنه ، وبعثه بعد فترة إلى الخليفة فى أمر من الصعوبة والكراهة بحيث تظاهر التنوخى بالمرض ليتخلص منه . واكتشف عضد الدولة بالحيلة أن المرض زائف، ومنع القاضى من مغادرة منزله : فاضطر إلى البقاء فيه إلى حين وفاة الامير .

Marfat.com

وتوجـــد ثلاثـــة كتب لهذا الرجل كاملة أو أجزاء منها . أحدها مجموعة من الأقـــوال المعـــزوة إلى الرســـل وغيرهم من الاشخاص المهمين . والآخر ، ولعله أشـــهرها، « الفرج بعد الشدة » ، الذى قلنا عنه شيئا من قبل . ويسمى الاخير ، الـــذى استغرق عشرين عامـــــــا فى تأليفه ، من ٣٦٠ – ٣٨٠ هـــ ، « جامع الـــتواريخ » أو « نشـــوار المحاضرة » ، وهو فى أحد عشر مجلدا ، نشر أولها مع تـــرجمة ، ويوشـــك الثامن أن ينشر . ولا ندرى الآن إذا ما كانت المجلدات التسع الـــباقية موجودة فى أى مكان . وقد رجع إلى الكتاب كثير من الكتاب (صحف كـــثير مـــنهم الكـــلمة الأولى مـــن العنوان) إذ إنه ذخيرة من الأخبـــــار عن الامصـــار المختلفة أشـــــد الاختلاف .

ويذكـــر المؤلـــف ، الـــذى وضع مقدمة لكل جزء ، قائمة لقريب من مئة موضـــوع مختـــلفة عالجهـــا : ويبدو فى المجلد الاول أنه أوفى بوعده فيها جميعا . واســـتطاع أن يحصـــل عـــلى قدر كبير من المعلومات الغربية ، التى تؤلف تكملة مســـتحبـــــة لتاريخ الطبرى الهزيل ، بحكم قضائه كل حياته فى مجتمعات مشاهير العراق ، أو فارس ، واتصاله خاصة بالرجال الذين جمعوا كل ما أمكنهم اكتشافه عن التاريخ من أسلافهم المباشرين ومعاصريهم ، اتصالا وثيقا . ووصل كثير من معـــلوماته إلى كتاب الوزراء لهلال الذى يضم نفس الروايات ، ذاكرا أحيانا اسم هـــذا التنوخى ، وأحيانا أسماء الرواة الذين أخذ عنهم التنوخى . ولعله فى الاحوال الاخـــيرة أخـــذ المادة نفسها من مستمع آخر . ولكن المناسبات التى يتفق فيها مع مسكويه فى إيراد مواده أندر ، وإن لم يمكن القطع بشىء بصدد العلاقة بينهما ، مع عدم حصولنا على الكتاب كله .

Marfat.com

ورمـــى التـــنوخى بصفة رئيسية إلى ألا يضمن كتابه شيئا موجودا فى كتاب آخـــر : ولكـــنه لم يتشدد كل التشدد فى التزام هذه القاعدة . إذ يوجد كثير من أخـــباره فى المجلدين كليهما وفى كتابه الأول « الفرج بعد الشدة » . ومهما يكن القـــول ، فالمـــرجح أن أغلب المادة التى ضمنها فى « نشواره » منقولة شفاها إلى ذلـــك العصـــر ، ثم رجـــع إليها المؤرخون والاخباريون لاستخدامها فى أغراضهم الخاصـــة . ويورد معجم الادباء لياقوت كثيرا من القصص من المجلدات الموجودة والمفقودة . رآها فى أثناء جمع مادة أخباره . وتعنى أبو على – تلك الكنية العامة التى يتغير معناها بتغير الموضوع المتناول – فى معجم ياقوت عادة التنوخى .

والاخـــبار الـــتى تشـــير إلى وزراء القرن الرابع : ابن الفرات ، وعلى بن عيســـى، وابـــن مقلة ، وغيرهم ، موجودة فى كتاب الوزراء لهلال أيضا : ولسوء الحظ لم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا قطعة مثل كتاب الجهشيارى ، وعلى الرغم مـــن إفاضـــة مســـكويه فى تناوله الوزراء البويهيين ، فر منه كثير من الأخبـــار المنتمية إلى هذه الحقبة ، والواردة عن رواة ثقات ، أو ظنها غير جديرة بالتدوين فى كـــتابه . وهى ذات أهمية باقية لمـــا تلقيه من ضوء على عادات العصر أو أخلاق الزعماء . ولكن الحقبة التى تحوز مجموعات التنوخى القيمة العظمى بالنسبة لها هى القرن الهجرى الثالث ـــ إذ صارت التواريخ مخلة إخلالا عجيبا بعد وفاة المأمون . فتصـــور العلاقات بين الوزراء ، والمؤامرات التى حاكوها للاستيلاء على المراكز ، والدرجـــات المختـــلفة التى كشفوا عنها فى شكران الجميل أو نكرانه ، وخرافاتهم وأوهـــامهم ، فى وضوح كبير ، وتكتسى شخصيات كشخصية سعيد ، زعبيد الله ابن القاسم ، وإسماعيل بن بلبل ، والعباس بن محمد أخى ابن الفرات ، التى كانت ظليلة معتمة فى التواريخ ، تكتسى باللحم والدم تدريجا .

Marfat.com

وهاك إحدى قصص التنوخى الهندية. وهو يضمنها فى « الفرج بعد الشدة» وفى « نشوار المحاضرة » أيضا .

حدثنا أبو الحسن محمد بن عمر بن شجاع المتكلم البغدادى الملقب بجنيد، قال : حدثنا الفضل بن هامان السيرافى – وكان مشهورا بسلوك أقاصى بلاد السبحر – قال : قال لى رجل من بعض بياسرة بلاد الهند – والبيسر هو المولود على ملة الإسلام هناك – قال : كان فى إحدى بلادهم ملك حسن السيرة . وكان لا يأخذ ولا يعطى بمواجهة ، وإنما كان يقلب يده وراء ظهره ، فيأخذ ويعطى بها ، إعظاما منهم للملك ، وسنة لهم هناك ولأولادهم . وأنه توفى ، فوثب رجل من غير أهل المملكة فاحتوى على ملكه . وهرب ابن له كان يصلح للملك ، خوفا على نفسه من المتغلب . ورسوم ملوك الهند أن الملك إذا قام عن مجلسه لأى حاجة عرضت له، كان عليه صدرة قد جمع فيها كل نفيس وفاخر من اليواقيت والجواهر مضروب بالابريسم فى الصدرة ، ويكون فيها من الجوهر ما لو أراد أن يقيم به ملكه لاقامه . قال : ويقولون : ليس بملك من إذا قام عن مجلسه وليست معه ، حتى إذا حدثت عليه حادثة وهرب بها ، أمكنه إقامة ملك منها . فلما حدث على الملك تلك الحادثة ، أخذ ابنه صدرته وهرب بها .

فحكى عن نفسه أنه مشى ثلاثة أيام ، قال : ولم أطعم طعاما ، ولم يكن معى فضة ولا ذهب فأبتاع به مأكولا ، ولم أقدر على إظهار ما معى، وأنفت أن أستطعم. قال : فجلست على قارعة الطريق ، فإذا رجل هندى مقبل على كتفه كارة ، فحطها وجلس حذائى . فقلت : أين تريد ؟ قال : الحرام الفلانى . ومعنى الحرام الرستاق . فقلت : وأنا أيضا أريد هذا الحرام . قال : فنصطحب ؟ قلت : نعم . فصحبته طمعا فى أن يعرض علىّ شيئا من مأكوله . قال : فحل الكارة

Marfat.com

وأكـــل ، وأنا أراه ، ولم يعرض علىّ شيئا من مأكوله ، ولم تقوَ نفسى على أن تبدأه بالسؤال . فلما فرغ قام يمشى ، فمشيت معه وبت معه ، طمعا فى أن تحمله المزاملة عـــلى العـــرض عـــلىّ . فعمل بالليل كما عمل بالنهار . قال : وأصبحنا فى غد فمشينا، فعاملنى بمثل ذلك أربعة أيام . قال : فصار لى سبعة أيام لم أذق فيها شيئا ، فأصـــبحت فى الثامن ضعيفا مهووسا لا قدرة لى على المشى . فعدلت عن الطريق ، وفـــارقت الرجل . فرأيت قوما يبنون ، وقيـــّما عليهم . فقلت للقيم : استعملنى مثل هؤلاء بأجرة يوم . ففعل ، فابتعت بها ما أكلته ، وقمت أناولهم الطين . فكنت لعادة الملك أقلب يدى إلى ظهرى وأعطيهم الطين ، فلما أتذكر أن ذلك خطأ ينبه عـــلى سفك دمى ، أبادر بتلافى ذلك ، فأرد يدى بسرعة من قبل أن يفطنوا لى . قـــال : فلمحـــتنى امرأة قائمة ، فأخبرت سيدها خبرى ، وكانت صاحبة البناء ، وقالت : لا بد أن يكون هذا من أولاد الملوك. قال : فتقدمت إلى القيم بحبسى عن المضـــى مـــع الصناع ، فاحتبسنى وانصرف الصناع . فجاءتنى بالدهن والعروق لأغتســـل بهمـــا ؛ وهـــذه تقدمة إكرامهم ، وسنة لعظمائهم ، فتغسلت بذلك . وجـــاءونى بـــالارز والسمك ، فطعمت . فعرضت المرأة علىّ نفسها فى التزويج . فأجبت وعقدت ، ودخلت بها من ليلتى .

وأقمـــت معهـــا أربع سنين ، أدبر حالها وحالى ، وكانت لها نعمة . فأنا يوما جالس على باب دارها ، إذا برجل من بلدى ، فاستدعيته ، فجاء . فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من بلد كذا وكذا . فذكر بلدى . فقلت : ما تصنع ههنا ؟ قال: كـــان فيـــنا ملك حسن السيرة فمات ، فوثب على ملكه رجل ليس من أهل بيت المـــلك ، وكـــان للملك الاول ابن يصلح للملك فخاف على نفسه فهرب ، وإن المتغـــلب أســـاء عشرة الرعية ، فوثبنا عليه فقتلناه ، وانبثينا فى البلدان نطلب ابن

Marfat.com

ذلـــك المـــتوفى فنجلسه مكان أبيه ، فما عرفنا له خبرا . قال : فقلت : أتعرفنى ؟ قـــال: لا . قلت : أنا طلبتكم . قال : وأعطيته العلامات . فعلم صحة ما قلته له ، فكفـــر لى . فقلت : اكتم أمرنا إلى أن ندخل الناحية . قال : أفعل . ففعل . قال : فدخـــلت إلى المرأة ، وأعلمتها بالخبر ، وحدثتها بأمرى كله ، وأعطيتها الصدرة، وقلت : هذه قيمتها كذا وكذا ، ومن حالها كذا وكذا ، وأنا ماض مع الرجل، فإن كان ما ذكر صحيحا فالعلامة أن يجيئك رسولى ويذكر لك الصدرة ، وإن كانت مكيدة كانت الصدرة لك .

قـــال : ومضـــى الـــرجل ، وكـــان الامر صحيحا . فلما قرب من البلد ، استقبلوه بالتكفير ، وأجلسوه فى الملك . فأنفذ إلى زوجته من حملها ، فجاءت إليه. فحـــين اجـــتمع شمله واستقام أمره ، أمر فبُنيت له دار ضيافة عظيمة ، وأمر أن لا يجوز فى عمله مجتاز إلا حُمل إليها ، فيضاف فيها ثلاثة أيام ، ويزود لثلاثة أيـــام أخـــر . فكان يفعل ذلك ، وهو يراعى الرجل الذى صحبه فى سفره ، ويقدر أن يقع فى يديه .

فـــلما كان بعد حول استعرض الناس . قال : وكان يستعرضهم فى كل يوم فـــلا يرى الرجل ، فيصرفهم . فلما كان فى ذلك اليوم، رأى الرجل فيهم . فحين وقعـــت عـــليه عيـــناه ، أعطاه ورقة تابول ، وهذه علامة غاية الاكرام ونهاية رتبة الاعظـــام ، إذا فعله الملك برعيته . قال : فحين فعل الملك ذلك بالرجل ، كفر له وقبل الارض . فأمره بتغيير حاله ، وإحسان ضيافته ، ففعل . ثم استدعاه ، فقال : أتعرفنى ؟ قال : وكيف لا أعرف الملك ، وهو من عظم شأنه وعلو سلطانه بحيث هـــو ؟ قـــال : لم أرد هـــذا ، أتعرفنى قبل هذا الحال ؟ قال : لا . فذاكره الملك بالحديث والقصة فى منعه إياه الطعام فى السفر . قال : فبهت الرجل . فقال : ردوه

Marfat.com

إلى الدار. فردوه ، فزاد فى إكرامه ، وحضر الطعام فأطعم . فلما أراد النوم ، قال الملك لزوجته : امضى فغمزيه حتى ينام . قال : فجاءت المرأة ، فلم تزل تغمزه إلى أن نام ، ثم رجعت إلى الملك ، فقالت : قد نام . قال : ليس هذا نوما ، حركوه ! فحركوه فإذا هو ميت . قال : وقع فى يدى ، فتناهيت فى إكرامه ، والهند لهم أكباد عظام ، وأوهام ظريفة ، فأدخلت عليه حسرة عظيمة ، إذ لم يحسن إلىّ فقتلته، وقد كنت أتوقع موته قبل هذا ، بما توهمه واستشعره من العلة فى نفسه لفرط الحسرة .

Marfat.com

الفصل الثامن

المؤرخون المتأخرون

{ أبو شجاع الروذبارى }

يبدو أن التأليف التاريخى بلغ أوجه فى كتاب مسكويه للأسباب التى قدمت . وضم المرحوم السيد امدروز Amedroz إلى الجزء الذى أدخله فيـــما بعد ابن الأثير فى تاريخه العـــام من كتـــابه:

(١) تكملة أبى شجاع ، وزير المقتدى، ٤٨١ ـ٤٨٤، المتوفى عام ٥٠٣ هـ .
(٢) تكملة تاريخ ثابت بن سنان لهلال الصابىء ، التى لا يوجد إلا قطعة منها .

ويـــبين المـــدون عن أبى شجاع الروذبارى أنه كان متدينا وورعا : ويدعم تاريخه هاتين الصفتين . وهو يقينا أقل من مسكويه من الناحية الفكرية ، أضف إلى ذلك أنه يحيد عن طريقه ليمدح السلاجقة ، مقابلا أعمالهم بأعمال البويهيين . ولا يكشـــف عن أى شىء شبيه بالمعرفة الخاصة التى حصل عليها مسكويه بالإدارة من اتصاله بابن العميد والمهلبى ، وبعنايته بها .

Marfat.com

{ هلال الصابى }

وصـــــدّرت طبعة امدروز الاولى تاريخ هلال بالقطعة الباقية من كتابه عن الـــوزراء ، الـــتى تكاد تقتصر على معالجة وزراء المقتدر : ابن الفرات ، وعلى بن عيســـى ، وابـــن مقـــلة . ونجد مصدر كثير من قصصه فى « النشوار » ، الذى وصـــفناه أمس . وذكر التنوخى مباشرة أحيانا ، وفى أحيان أخرى يذكر من روى عنهم التنوخى . ولما كـــــان التنوخى يقول « حدثنى » على حين يقول هلال « حـــدث » . فـــلعله كـــان فى جميع الحالات يروى عن التنوخى ، الذى عاصر الراوى ، على حين كان هلال متأخرا ، إذ إنه من الجيل الثالث . وكان على شىء مـــن المعـــرفة الوثيقـــة الـــتى نجدها عند مسكويه بالأعمال ، بحكم مركزه كاتب داواوين.

{ الخطيب البغدادى }

وهناك مؤلفان يجعلهما عملهما الغريب بارزين فى القرنين الخامس والسادس، كل فى قرنه . وهما الخطيب البغدادى وابن عساكر الدمشقى . وقد ولد الأول فى ٣٩٢ هـــــ ، وتـــوفى فى ٤٦٣ هـــ . ويعتبره ياقوت من ختم به ديوان المحدثين ، ولكـــن يجب ألا نفهم هذه العبارة فهما حرفيا متشددا . وقد اتبع المثل الذى ضربه الطـــبرى وغيره الذين أكثروا من الرحلات وأبعدوا بحثا وراء المعرفة : فذهبت به رحلاتـــه إلى فارس ، والشام ، والجزيرة . وذكر أنه لما حج ، شرب من ماء زمزم ثـــلاث شـــربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات ، فالحاجة الاولى أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يملى الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى . وقد تحققت الرغبات الثلاث جميعا . وكانت أولاها أيسرها :

Marfat.com

فلما عاد إلى العاصمة بعد رحلاته ، حدث بتاريخ بغداد بها . ثم تحققت الثانية بعد ذلـــك . فقد وقع إليه جزء ، فيه سماع الخليفة القائم ، فسأل أن يؤذن له فى قراءة الجـــزء . فقـــال الخليفة : هذا رجل كبير فى الحديث ، فليس له على السماع منى حاجة ، ولعل له حاجة ، أراد أن يتوصل إليها بذلك ، فسلوه ما حاجته ؟ فسئل ، فقال : حاجتى أن يؤذن لى أن أملى بجامع المنصور . فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بأن يؤذن لـــه فى ذلك .

وكـــانت الرغـــبة الثالـــثة أشقها فى التحقق . فقد كان المكان الذى رغب الخطيـــب أن يدفـــن فيه قد حصل عليه رجل آخر ، حفر فيه قبرا لنفسه ، وكان يمضى إليه فيختم فيه القرآن . فلما سئل أن يدفن فيه الخطيب ، امتنع ، مبينا أهميته عـــنده . فتقدم رجل له خطره لمناقشته . قال : يا شيخ ، لو كان بشر فى الاحياء ، ودخلت أنت والخطيب إليه ، أيكما كان يقعد إلى جنبه ، أنت أو الخطيب ؟ فقال: لا ، بـــل الخطيـــب . فقال له : كذا ينبغى أن يكون فى حالة الموت ، فإنه أحق به مـــنك. فطـــاب قلـــبه ، ورضى بأن يدفن الخطيب فى ذلك الموضع ، فدفن فيه ، وتحققت بذلك أمنية الخطيب الثالثة .

ويـــروى تمثيلا لدقة معلوماته أن بعض اليهود أظهر كتابا ، وادعى أنه كتاب رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات الصـــحابة، وأنـــه خـــط على بن أبى طالب ، فعرضه رئيس الرؤساء على أبى بكر الخطيـــب ، فقـــال : هذا مزور ... فى الكتاب شهادة معاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت فى سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وكـــان قد مات يوم الخندق ، فى سنة خمس . وكانت هذه المغرفة من الندوة بحيث تقـــدم رئيس الرؤساء إلى القصاص والوعاظ ، ألا يورد أحد حديثا عن رسول الله

Marfat.com

صـــلى الله عـــليه وسلم ، حتى يعرضه على أبى بكر الخطيب ، فما أمرهم بإيراده أوردوه ، وما منعهم منه ألغوه .

ويهمنا أن نلاحظ بين شيوخ الحديث الذين روى الخطيب عنهم سيدة — هى كريمة بنت أحمد المروروزى ، التى قرأ عليها صحيح البخارى فى خمسة أيام ! ولعل الكـــتاب كـــان معروفا معرفة تامة منهما كليهما ، ولكن المدة تبدو قصيرة قصرا عجيبا حتى على هذا الفرض .

ويقـــال إن مصـــدر معارف الخطيب مكتبة جمعها من يسمى غيث بن على الصورى: خلف بعد موته عند أخته اثنى عشر عدلا محزوما من الكتب . فلما خرج الخطيب إلى الشام ، حصل من كتبه ما صنف منها كتبه ، وقدرها ٥٥ كتابا .

وكـــانت مجالسه فى مساجد الشام كمسجد صور مزدحمة : ولكن الخطيب قـــال : القعود فى جامع المنصور مع نفر يسير أحب إلىَّ من هذا : وواضح أن أهمية العاصـــمة لم ينل منها ضعف الخلافة إلى حين نكبة المغول . وقد دخل بعض العلوية مســـجد صور، والخطيب يملى طلبته ، وقدم له دنانير هدية من بعض المحتشمين . فقـــال الخطيب: لا حاجة لى فيه . فقال العلوى : كأنك تستقله ، ونفض كمه على ســـجادة الخطيـــب، وطـــرح الدنانير عليها . وقال : هذه ثلاث مئة دينار . فقام الخطيـــب محمر الوجه ، وأخذ السجادة ، ونفض الدنانير على الارض . وخرج من المســـجد . قال الراوى : ما أنسى عز خروج الخطيب ، وذل ذلك العلوى ، وهو قـــاعد على الارض ، يلتقط الدنانير من شقق الحصر ويجمعها . وهددت حياته فى قصـــة أخـــرى فى دمشق على يد رافضى كان أميرا للبلدة . وقد سمح له صاحب

Marfat.com

الشـــرطة المكلف بقتله أن يلتجىء إلى علوى قال للأمير : هذا رجل مشهور ، وإن قتلته ، قُتل به جماعة من الشيعة بالعراق وخربت المشاهد، فأمر بإخراجه إلى صور .

ويشـــغل المحل الاول من ثبت كتبه تاريخ بغداد ، وهو معجم للتراجم بصفة رئيســـية ، وإن صـــدر بوصف للمدينة . يلى ذلك قائمة كتب متصلة بدقائق علم الحديـــث ، بعضـــها فى الدفـــاع عـــن الشافعى ، الذى صار الخطيب من أتباعه المتحمسين ، بعدما كان أولا من أتباع ابن حنبل. وبعضها الآخر ذو عناوين شبيهة بعـــناوين كـــتب الجـــاحظ، كتاب البخلاء ، وكتاب الطفيليين ، وكتاب التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف،. وكانت قوة ذاكرته مثار الاعجاب : ولكن بعض المنتقصـــين تمسكوا بأنه لم يكن يستطيع الاعتماد عليها فى الاجابة على ما يقدم إليه من أسئلة وأنه كان دائما يحتاج إلى بعض الوقت لاعداد أجوبته .

{ ابن عساكر }

ويلصـــق باسم ابن عساكر على بن الحسن ، ٤٩٩ – ٥٧١ ، ثبت أكبر . وقـــد أكـــثر من الرحلات وأبعد كالخطيب بعد سماع شيوخ دمشق ؛ فقضى خمس ســـنوات فى بغـــداد ، وغيرهـــا فى الحجاز، وأصفهان ، ومرو ، وهراة ، والرقة ، والكوفـــة ؛ ومن شيوخه ١,٣٠٠ رجل ونيف وثمانون امرأة . وأعظم كتبه تاريخ دمشق، الذى كان أولا فى ٥٧٠ جزءا ثم جعله فى ٨٠٠ : ويبتدئ كتاريخ بغداد بوصـــف للمدينة ينتقل منه إلى معجم ألفبائى للرجال الذين عاشوا فيها أو اتصلوا بهـــا. ووصف دمشق محل إخلالا مخيبا للآمال ، وقد تفوق عليه كتاب طبوغرافى مـــتأخر فى يســـر . أما معجم التراجم فعمل له مزاياه ، وقد أفاد منه ياقوت فائدة

Marfat.com

كـــبيرة : وأخذ ابن عساكر نفسه الكثير من الخطيب . وهو مليء إلى أبعد الحدود بالاســـانيد وتكرير المادة الواحدة تبعا « لطرقها » المختلفة : وهكذا يخصص مجلدا للخـــليفة الاول أبي بكر ، الذى يظن أنه زار تلك المدينة فى الايام الاولى : ولكن المجـــلد لا يحـــتوى إلا على قليل من الأقوال المعزوة إلى هذا الخليفة ، وإنما تمتلىء الصـــفحات بالتكرير الذى لا نهاية له . وقد حذفت الاسانيد فى الطبعة التى شرع بعض العلماء يصدرونها فى دمشق ، فقل حجم الكتاب تبعا لذلك .

وتضـــم القائمة الطويلة لكتبه الاخرى ذكر بعض المواد التى تترجم لحياته : معجما فى اثنى عشر جزءا، لمن سمع منه أو اجـــاز له رواية الاحاديث : ومجموعات مـــن جميع الاصناف تعالج الجوانب المختلفة من الحديث ، وأسئلة فى علم الكلام ، وغيرهـــا . والقائمة التى تبين أجزاء كل كتاب غاية فى الطول . وربما لم يكن كثير مـــن الكـــتب غير مواد مجموعة : ولكن الاجزاء التى طبعت من التراجم فى تاريخ دمشـــق تدل على جهد عظيم فى جمع أسماء الرجال ، وترتيبهم على الالفباء، وجمع الحقائق عنهم .

وقـــد رأيـــنا أنه عنى عناية خاصة بالخليفة الاول . ودون ابنه أنه لما أملى فى فضـــائل الصديق سبعة مجالس ، ثم قطعها بإملاء مجالس فى ذم اليهود وتخليدهم فى النار ، جاء إليه صديق وقال له : رأيت الصديق فى النوم وهو راكب على راحلة ، فقـــلت : يـــا خليفة رسول الله ، قد أملى علينا الحافظ أبو القاسم سبعة مجالس فى فضائلك . فأشار إلىَّ بأصابعه الأربع . فقال له والدى : قد بقى عندى مما خرجتُ ولم أمله أربعة مجالس . ويبدو أن الصديق لم يدون أيه ملاحظات أبداها الطيف بهذا الصدد .

Marfat.com

ويـــبدو أنه أفلح فى الحصول على إعجاب العاصمة، بخلاف كثير من رجال الامصار الذين أخفقوا فى ذلك ؛ فكان أحد زوار ثلاثة من دمشق تفوقوا على جميع من رأوه من شيوخ بغداد ، وكان هو أعظم الثلاثة . ومع ذلك يقال إنه لم يكسب إلا قـــليلا مـــن المال من علمه . وقد أجاب ابنه ، عندما سئل : أى شىء فتح له ؟ وكيـــف بر الناس له ؟ قال : هو بعيد من هذا كله ، لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعـــــة والتسميع حتى فى نزهه وخلواته . فقال السائل : الحمـــد لله ، هـــذا ثمرة العلم ، ألا إنا قد فتح لنا ما حصلنا به الدار والكتب وبناء المســـجد ، ما يقرب من اثنى عشر ألف دينار ، وطبيعى أن الخبر أدى إلى التعليق على قلة الفوائد التى تجلبها الابحاث الدينية والتاريخية . فكثير من الشعراء حصلوا على عشرة أضعاف ذلك المبلغ جائزة على قصيدة واحدة من قصائدهم .

وتعوقـــنا الحاجـــة إلى الرواة الاصليين بشكل خطير ، فى الحقبة التالية على الزمن الذى ينتهى عنده تاريخ هلال . ونحن نعرف أسماء المؤرخين ، ولكن كتبهم لم تخرج إلى الضوء بعد . وقد انتقل مركز الامور ، بعد ألوان الصراع بين فروع بنى بويـــه التى يرويها أبو شجاع (لم يكن هو راويها الاصيل) وهلال ، من بغداد إلى شـــيراز ، واختارســـلاطين الســـلاجقة الذين انتزعوا السلطة من البويهين عواصم خاصة بهم . وواضح أن بغداد بقيت العاصمة الادبية لعدة أسباب ، ولكن مركز الســـلطة انتقل إلى مواضع أخرى ، وقطعت أوصال بلاد الخلافة الشرقية تقطيعا لا يـــرجى له اتصال . وعندما صار الخليفة حاكما مستقلا ثانية فى القرن السادس ، كانت مملكته قطعة صغيرة من الامبراطورية التى كانت فسيحة الارجاء .

Marfat.com

ولذلك سجلت الحقبة البويهية بعد بهاء الدولة تسجيلا مخلا جدا ، وليس لديـــنا فى اللغة العربية تاريخ مُرضٍ عن السلاجقة : وقد بقيت مقتطفات من كتاب البـــندارى عـــند عماد الدين الاصفهانى ، الذى يعنى بالاسلوب الجميل أكثر من عنايـــته بالحقائق . والمؤرخ الذى بلغ بالتاريخ الإسلامى إلى سنة ٥٧٥ هـــ ، هو الواعـــظ أبو الفرج بن الجوزى (٥٠٨ - ٥٩٧ هـــ) ، الذى يتحدث ابن جبير الـــرحالة عن مواعظه فى شغف . وقد رأى الضوء بعض ما ألف من كتب كثيرة : أحدهـــا عن مناقب عمر الثانى ، وآخر عن الأذكياء ، وهو مجموعة من الاقاصيص العجيبة والمسلية ، تضم بعض القصص « البوليسية » . ولقى تاريخه ، « المنتظم » وكـــان فى اثنى عشر مجلدا ، ما لقيه كثير من الكتب الكبيرة التى من هذا اللون ؛ تفـــرقت المجـــلدات ، وشقت أجزاء منفصلة طريقها إلى مكتبات مختلفة وتؤلف الوفيـــات فى هـــذا الكـــتاب جـــزءا هاما من حوادث كل سنة ، وقد أخذ هذا الاســـلوب، الـــذى اتبعه ابن الاثير بدرجة معتدلة، فى الشيوع التدريجى منذ ذلك العهـــد : ويتخذ التاريخ صورة مشابهة لصورة السجل السنوى ، الذى يذكر فيه موجـــز جـــد مختصر بالحوادث تتبعه قوائم بالوفيات ، التى تتضخم أحيانا فتصير تراجم مطولة .

ويصدق قول جبون Gibbon إن المؤرخ العربى إما الحولى الجـــــــاف أو الخطيب المزوق الاسلوب بعد عهد مسكويه ، لا قبله . فلا يصدق على الطبرى أو المســـعودى ، أو مســـكويه ، ويقرب من الصدق عند المؤرخين الذين تلوهم ، ولكـــن المحـــتمل أنه قائم على المؤلفين المتأخرين الذين عرفهم جبون فى الترجمات

Marfat.com

اللاتينية ، وخاصة أبا الفدا ، الحولى الجاف ، وابن عربشاه ، الخطيب المزوق الاسلوب . فالمهمة التى وضعها المؤرخون أمامهم من الضخامة بحيث لم يدعو لانفسهم وقتا كافيا إلا للاقتطاف من الكتب القديمة : أما البلاغيون فنصبوا لانفسهم مهمة أكثر اعتدالا ، ولكن عنايتهم كانت موجهة إلى البحث عن العبارات المختارة ، والمترادفات التقليدية، وصور الحديث والسجع ، لا إلى فصل الحقائق المهمة عن غيرها وتوضيح تطور الاحداث .

ومن الطبيعى أنه يوجد فى هذا المجال الفسيح من التواريخ العامة ، والخاصة بأسر ، أو أمصار ، أو بقع معينة ، التى لدينا ، خليط جد متنوع من جميع الخصائص التى يمكن أن تدخل الكتابة التاريخية من أى صنف : كالصحة ، والعدالة ، والتمييز، والقدرة على اجتذاب انتباه القارئ والاحتفاظ بتشوقه . فإن لم يكن أحد هذه الكتب التى ترجمت إلى لغة أوروبية قد حصل على أى لون من الشيوع فى أوروبا ، فالسبب المحتمل فى عدم ألفة الاوروبين للأسماء والهيئات التى يعالجها أكثر منه فى افتقارها إلى المزايا فيما عالجته من أمور . ولذلك على الرغم من انتشار الروايات التى ألفها المرحوم جرجى زيدان فى التاريخ الإسلامى ، فى مصر وغيرها من الاقطار التى تتكلم العربية ، يتمسك الناشرون الانجليز بأن ترجماتها لن تباع ؛ لانعدام المشاعر التى تغرى على قراءتها .

{ ابن خلدون }

وقد يقال عن كثير من المؤرخين العرب إن كتبهم آلية ، إذ إنها إعادة لنصوص أو روايات كانت موجودة من قبل أو مختصرة منها ، أو إن كان خصص لها وقت ما ، فقد قضى هذا الوقت فى المحسنات الادبية التى تختفى فى الترجمة ، فهى

Marfat.com

تؤثـــر فى ظاهر الرواية لا فى جوهرها . طبيعى أنه يوجد استثناء مشهور من ذلك ، هـــو كتاب ابن خلدون ٧٣٢ – ٨٠٨ . حقا إن كتابه التاريخى ، الذى تعالج فيه الدويلات « الاسرات » منفصلة ، ولذلك يتكرر كثير من مادته ، ولكنه ذو قيمة فريدة فى تسجيل الشئون الافريقية التى يحتفظ بها ، من الصنف الجاف : فهو رواية جد عارية للأحداث . ولكن المقدمة التى تشغل مجلدا كاملا لا مثيل لها فى الأدب العـــربى وقـــل أمثالها فى أى أدب وُجد قبل اختراع الطباعة ، فى أنها تضم أحكام المؤلـــف العامـــة التى خرج بها من دراسة السجلات التى تؤلف موضوع المجلدات التالية . والفكرة شبيهة شبها عجيبا بفكرة أرسطو ، الذى نظم أو تسبب فى تنظيم أوصاف عدد كبير من المنظمات ، وألف رسالته العظيمة فى السياسة من ملاحظاته على ما حدث . ويذهب كلاهما إلى وجود اطراد فى السلوك الانسانى شبيه باطراد الطبيعة : وإن طرقا معينة من الحياة تجلب ميولا معينة : وكلاهما يتخلص ما أمكنه مـــن جميـــع العناصـــر الاستثنائية ويستخرج نتائجه من الوقائع العادية ، وتكرار الحـــوادث المتشابهة التى تبرر ما اتخذوه من قواعد عامة . ولا يرنو ابن خلدون إلى خـــلق دولة مثالية بخلاف أرسطو : وإنما هو صاحب رأى بأن الشئون البشرية تتبع مجـــرى طـــبيعيا . ولا يتوقع غير تكرر نفس مجموعة الاحداث التى أمدته دراساته الـــتاريخية بالكـــثير من الامثلة عليها . وكانت النتيجة فلسفة للتاريخ ، بعيدة كل الـــبعد عن أيـــة فلسفة تطورية ، لانها لا تنتظر تقدما متواصلا ؛ وانما صورا محددة تحديـــدا صارما منه ، وتحمل بذور الدمار ؛ فأهل المدن المنهكون يجب أن يفسحوا المجال للمهاجرين الاقوياء من البدو فى انتظام . وكان فى الامكان التنبؤ بمصير شمال افريقية دون خطأ من النظريات التى شرحها ابن خلدون .

Marfat.com

وليســـت المقدمة مقصورة على التأملات الفلسفية : بل يعطينا موجزا مفيدا بالموضوعات التى شغلت اهتمام المسلمين خارج السياسة، مبينا أنه يرى أن وظيفة الـــتاريخ تتعدى المادة التى منحت أصحاب الحوليات موضوعاتهم الرئيسية : ومنها الأدب ، والتطور الفقهى والعلمى ، وأصول الفرق، وما أشبه .

ويبدو أنه لم يوجد كاتب عربى آخر سار على نهج شبيه بنهج ابن خلدون . وقـــد بذلـــت محـــاولات لـــنقل نتائج المفكرين الاغريق فى السياسة إلى لغة عربية واضحة: ولكن عدم معرفة المنظمات التى أقام عليها الاغريق دراستهم فى الموضوع جعـــلت هذه المحاولات مخفقة : فمن الواضح أن الكتاب كانوا يتحسسون طريقهم فى الظـــلام . ومن جهة أخرى وصل هؤلاء الذين يتصورون أن عملهم يقوم على اكتشاف الحقوق والواجبات المشتركة بين الحكام المطلقين والرعية إلى القليل مما لا يوجد على السطح .

{ المقريزى }

ولم يختف المؤرخون العرب بعد ابن خلدون ، بل غنيت مصر خاصة بتواريخ الحقبـــتين الايوبية والمملوكية : ومنها تواريخ شاملة ، تروى الاحداث سنة فسنة ، وتـــراجم أفـــراد من السلاطين ، لا يمكن تمييزها من التاريخ ، كما رأينا . ومنهم كاتب مشهور هو المقريزى ، الذى تتفوق خططه فى وصف طبوغرافية القاهرة على أى وصف آخر لدينا فىالعربية لأية مدينة أخرى ؛ وهى منجم للآثار القديمة أيضا، وتكشـــف عن جهد فى الاعداد والبحث أعظم مما كان لدى أولئك المؤلفين عادة مـــن وقت لينفقوه على أعمالهم ، ولا يقل تاريخه لسلاطين المماليك ، الذى توجد تـــرجمة فرنسية له ، وإن لم يطبع الأصل بعد ، عن غيره من التواريخ ، ولكنه قلما

Marfat.com

يـــرتفع عـــن المتوسط فى أى جانب . وكثير من هذه التواريخ المصرية ، كتاريخ الاسلام للذهبى ، أقرب إلى أن تكون مجموعة أخرى من الوفيات منها إلى أن تكون تاريخا مطردا : ويجتهد المؤلفون فى جمع الوفيات ، وترتيبها على الالفباء ، وتسجيل ما يعرفونه عنها .

{ ابن إِياس }

يجـــب أن نستثنى من ذلك تاريخ مصر لابن إِياس ، الذى يصل بالاخبار إلى الفـــتح العثمانى ، بعد تخطيط موجز للأحداث السابقة على عصر المماليك . ولغته من وجهة نظر النقاء غير فصحى ، إذ يستخدم المؤلف عددا كبيرا من الالفاظ التى لا تضـــمها المعـــاجم : ويحـــب من وقت لآخر الاستشهاد بأشعار عصره العامية . ويشـــغل ذكـــر الـــتغييرات الواقعة بين الموظفين ، الذين كثروا فى نظام الحكومة المـــلوكى ، وصارت لهم وظائفهم المحددة تحديدا واضحا ، يشغل جزءا كبيرا من الكـــتاب، ويكشـــف أسلوبه وطريقة تفكيره عن فردية أكثر مما يوجد عند معظم أصـــحاب الحوليـــات : وواضح أنه يجد متعة كبيرة فى تدوين تكذيب الاحداث للأوهـــام الشعبية . وعلى الرغم من تأليف الجزء الاخير من كتابه فى ظل الســيادة العثمانية، لا يتردد فى تسخيف الترك، والتعبير عن احتقاره إياهم . ولكن من الآثار الملحوظة للانتصار التركى انقطاع سلسلة التواريخ المصرية .

ولا يـــرقى ابن إياس إلى مرتبة مسكويه فى تأليف المناظر الجديدة بالتصاوير المفزعة ، وتصوير الشخصيات التى يستطيع القارئ أن يتخيلها ، وتبقى واضحة فى ذهـــنه : فأغلب تفاصيله أجف وأقل من أن تحقق هذا الغرض : ولكن التأثير الذى يـــتركه تأثير راوية أمين لحقائق مكتشفة ، ومكتشف واع ، يلاحظ ويدون الامور التى تدل معرفتها على قيمتها . ومن ثم فكتابه عظيم الفائدة ، فى الاثار القديمة بمعنى

Marfat.com

صـــور السلوك والعادات ، والملاحظات على الأعمال العامة والامور الاخرى التى يهملها المؤرخون غالبا .

ولديـــنا الآن عدة مجلدات مطبوعة من تاريخ لمصر منذ الفتح الإسلامى إلى العصـــر المملـــوكى ، على نطاق واسع ، هو تاريخ أبى المحاسن بن تغرى بردى ، ومعـــنى اسم أبيه التركى « هبة الله » . وأسلوب هذا المؤلف أفصح من أسلوب ابن إياس .

انتهيـــنا الآن مـــن بحثنا فى الادب التاريخى العربى القديم : وقد اضطررنا إلى المـــرور عـــلى كـــثير من الكتب المهمة ، المنشورة وغير المنشورة ، صامتين : فقد اقتصـــرنا عـــلى المؤرخـــين الرئيسيين بينما كانت عملية تدوين الاحداث تتطور ، ووقفـــنا عندما مالت إلى أن تصبح آلية وذات طابع صارم غير متغير . وليس من المعقـــول أن نتوقع بين هذه الجمهرة من الأسماء عددا كبيرا من الروائع : فلم تخرج بـــلاد الإغريق إلا القليلين جدا ، لأن أحدا لا يعتبر التاريخ العام لديودور الصقلى من الروائع ، وكان عدد كبير من الكتب التى من هذا الصنف ، والتى بقيت أجزاء كـــبيرة مـــن بعضها ، ولا نعرف من غيرها إلا قطعا، على حين ضاع فريق ثالث تمامـــا، وكـــان ذا ميـــزة عاديـــة، وإن كان لها قيمتها بسبب ما احتفظت به من معـــلومات. ولا يقـــل التأليف التاريخى العربى عن التأليف الإغريقى يقينا فى العدد والتـــنوع، وإن كـــان أمامه منطقة أوسع كثيرا ليتناولها : وإذا كان لا يكشف عن المقـــدرة الفكرية اللامعة إلا قليل من آثاره ، أو يرجح أن تحصل على أى انتشار واســـع فى الـــترجمة ، لابـــد أن نضع أمامنا عوضا عن ذلك الرغبة الشغوف التى أظهـــرها كثير من المؤرخين فى الكشف عن الحق المجرد وتدوينه ، وفى الامتناع عن تشويهه بالتحيز أو الهوى .

Marfat.com

Marfat.com

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

Marfat.com